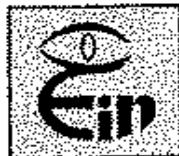


دكتور محمد خليفة حسن

أشارت الفكر الاستشراق في المجتمعات الإسلامية

فاطمة



آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية

د. محمد خليفة حسن أحمد

أستاذ تاريخ الأديان

كلية الآداب - جامعة القاهرة

المطبعة الأولى

١٩٩٧



جامعة القاهرة
كلية الآداب
مختبر لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أسماء إبراهيم الهمارى
د . شرقى عبد القوى حبيب
د . طنطاوى محمد ملوك
د . فراس حبودة قاسم
مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى
تصميم الكتاب: محمد ابر طالب

الناشر : معهد الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - أسيوط - الهرم - جمـع - تليفون : ٢٨٥١٢٧٦

Publisher IN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تشبع ملتهم﴾

(البقرة : ١٢٠)

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تعطيموا فريقا من الذين أتوا الكتاب
يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾

(آل عمران : ١٠٠)

صدق الله العظيم

المحتويات

صفحة

٩ تمهيد

الفصل الأول :

الأثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الديني .. ١١

١- إثارة الشكوك في العقيدة ١٣

٢- تشويد صورة الإسلام في الغرب ١٩

٣- التمعظيم من شأن الفرق الدينية ٢١

٤- التركيز الاستشرافي على الطوائف والأقليات في المجتمع الإسلامي .. ٢٨

٥- التمكين للصهيونية في العالم العربي ٣١

٦- التسخين للتحمير في بلاد المسلمين ٣٣

الفصل الثاني :

الأثار السياسية للاستشراق في المجتمع الإسلامي .. ٣٧

١- دور الاستشراق في التمكين للاستعمار في العالم الإسلامي ٣٧

٢- بعث القوميات في العالم الإسلامي ٣٩

٣- إسقاط الخلاة الإسلامية ٤٢

٤- تجزئة الأمة الإسلامية ٤٧

٥- نشر النظم السياسية الغربية في المجتمعات الإسلامية ٤٨

الفصل الثالث :

الأثار الاجتماعية للفكر الاستشرافي في المجتمع الإسلامي ٥٣

١- المخلفة الاجتماعية للمستشرقين

وأثرها في فهم النظام الاجتماعي لدى الإسلام ٥٦
٢- الآثار الاجتماعية السلبية للفكر الاستشرافي ٥٩
أ- تفريغ المجتمع المسلم من خلال التأثير على قيم الأسرة المسلمة ٥٩
ب- الهجوم الاستشرافي على المرأة المسلمة ٦٣
أولاً: المقابلة بين وضع المرأة المسلمة والمرأة الغربية وبيان معasan وضع المرأة المسلمة ٦٥
ثانياً: مسألة تعدد الزوجات ٧٠

الفصل الرابع :

آثار الفكر الاستشرافي في المجال الاقتصادي ٧٩
١- دور الغرب في تدهور الاقتصاد الإسلامي ٧٩
٢- الصورة الإسلامية وإصلاح النظام الاقتصادي ٨٢

الفصل الخامس :

الأثار السلبية للاستشراف في المجال الثقافي والفكري ٨٧
١- تشتيت الجهد الفكري والثقافي المسلمين ٨٩
٢- نشر القيم الغربية ٩٣

٣- نشر الفكر غير العقلى ٩٥
٤- تشجيع الثقافات الترورية ٩٧

الفصل السادس :

الأثار السلبية للفكر الاستشراقي في المجال العلمي ١٠١
١- التشكيك في مصادر العلوم الإسلامية ١٠١
٢- التشكيك في أصالة الفكر الإسلامي ١٠٩
٣- التشكيك في أصالة الشريعة والفتوى ١٠٩
ب- التشكيك في أصالة النحو العربي ١١٤
ج- التشكيك أصالة الأدب العربي ١١٦
د- التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث ١١٩
هـ- التشكيك في أصالة المضمارية الإسلامية ١٢٢

الفصل السابع :

الأثار الفكرية الإيجابية للاستشراق ١٢٩
١- ضرورة عزل الاستشراق عن الاستعمار والتنصير ١٣٠
٢- توسيع دائرة النظرية الإسلامية للاستشراق ١٣١
٣- تأثير الفكر الاستشراقي في الغرب ١٣٣
٤- تأثير الإسلام في المستشرقين ١٣٥
٥- إيجابيات أخرى ١٣٦

المخاتلة :

سبيل مراجحة آثار الفكر الاستشرافي ١٣٩
١- حقائق المراجحة ١٣٩
٢- سُبُل المراجحة ١٤١
أولاً : الدراسة العلمية الوعية للفكر الاستشرافي ١٤١
ثانياً : العودة إلى الدين والتمسك بتعاليمه ١٤٢
ثالثاً : التحكم في وسائل الإعلام ١٤٢
رابعاً : تنقية الفكر الإسلامي من الإسراطيليات والاستشاريات ١٤٣
خامساً : توفير الكتاب الإسلامي في اللغات الأوروبية ١٤٤
سادساً : إعداد دائرة معارف إسلامية ١٤٥
سابعاً : تحقيق تنمية المجتمعات الإسلامية ١٤٦
ثامناً : تقوية الدعوة وتطويرها كمؤسسة في مواجهة الاستشراق ١٤٧
المراجع والموشاوى ١٤٧

كتاب الأستشراق المبتدئ

تمهيد

يُمثل الفكر الاستشرافي في معظم حركة فكرية غربية مضادة للإسلام وال المسلمين . وقد ترك هذا الفكر آثاراً سلبية كثيرة في الفكر الإسلامي تظهر بصماتها واضحة في المجتمعات الإسلامية وفي أنشطتها المختلفة . ويعتبر الاستشراف مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن عملية الفزو الفكري المتواصل للثقافة الإسلامية إذ لا يكاد يخلو مجال من مجالات الحياة الإسلامية من أثر للفكر الاستشرافي . وعن طريق الاستشراف ، يحاول الغرب المحافظة على مكاسبه الثقافية التي جنאה في المرحلة الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه الثقافي ، وتوجيهه الحياة الشرقية عامة ، والإسلامية خاصة ، وجهة غربية . وعلى الرغم من وجود بعض الإيجابيات للفكر الاستشرافي فإن حجم الآثار السلبية وعمق هذه الآثار في المجتمع الإسلامي لا يمكن مقارنته بالفائدة التي تحققت من خلال الآثار الإيجابية . فالاستشراف أهدافه غربية خالصة ونتائجها بالنسبة للمجتمع الإسلامي نتائج خطيرة تسعى إلى محور الصفة الإسلامية وطبع المجتمع الإسلامي بطابع الثقافة الغربية .

وفي الصفحات التالية عرض للأثار الاستشرافية في المجالات الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والعلمية .

ويهتم هذا العرض ، بابراز الآثار السلبية ، وتوضيح الشبهات الاستشرافية والرد عليها في هذه المجالات المختلفة . ونعرض بعد ذلك لإيجابيات الفكر الاستشرافي حرصاً على موضوعية البحث العلمي . ونختم هذه الدراسة بخاتمة توضح سُبُل مواجهة آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية ، راجين الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى تخلص فكرهم مما تسرب إليه من أفكار أجنبية ، والعودة إلى الفكر الإسلامي في مصادره الأصلية في القرآن الكريم والسنّة النبوية .

الفصل الأول

الأثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الديني

يعتبر مجال العقيدة الإسلامية من أهم المجالات التي اهتم بها المستشرقون ووجهوا لها التصib الأكبر من دراساتهم ، فقد نشأ الاستشراف في مجال الدراسات الإسلامية أصلاً لدراسة العقيدة الإسلامية ، والبحث عن الوسائل والعوامل التي يمكن تطويرها لهدم هذه العقيدة وتخربيها وتشويه أصولها . ويعتبر الدافع الديني من أهم الدوافع التي وجهت المستشرقين لدراسة العقيدة الإسلامية ، فمنذ ظهور الإسلام وانتشاره في العالم النصراني القديم اكتشف الغرب أن الإسلام خطر عظيم يهدد النصرانية في عقر دارها وعندما فشل الغرب في المواجهة السياسية والعسكرية مع المسلمين ، ولم يتمكن من وقف الإسلام وانتشاره السريع في البلاد النصرانية وغيرها من بلاد العالم القديم الجبه إلى دراسة الدين الإسلامي دراسة دينية عقدية متعمقة من أجل وضع المخطط الدينية والفكرية للدفاع عن النصرانية بالوسائل الفكرية بعد فشل المواجهة العسكرية . وهكذا تفرغ عدد من علماء النصرانية واليهودية للتخصص في العقيدة الإسلامية ، والبحث في ألمجع الوسائل الفكرية لنقد الدين الإسلامي وتجسيده وتحريمه ، وتشويه صورته عملاً على منع انتشاره بين النصارى واليهود من ناحية ، ولتشكيك المسلمين أنفسهم في أمور دينهم وعقيدتهم من ناحية أخرى . ومع تطور الدراسات الاستشرافية في العقيدة الإسلامية جمع

المستشرقون بين الهدف الدفاعي عن اليهودية والنصرانية ضد الإسلام - وبين الهجوم على الإسلام في محاولة يائسة لوقف تقدمه ومنع انتشاره ، وفى هذا يقول د. حسن المعايرجي : « وقد نما هذا الهجوم الفكري والعقدي وشب حتى وصل إلى مرحلة متطرفة في عصرنا الحاضر ، وهو هجوم من شعيبتين : شعبية موجهة إلى الشعوب المسيحية لتحقيرها ضد الإسلام الذي انتشر واتسع نفوذه وذلك بتشويه صورته وتجريحه ، والقدح فيه، ونقده، والتطاول عليه وعلى القرآن وعلى بنى المسلمين ، مما كون ما يشبه الحدأ السسيك من الأفكار السوداء عن هذا الدين الخيف ... أما الشعبة الثانية فهي الشعبية الموجهة إلى المسلمين فيما نراه من هجمات تبشيرية بشعة على أمة الإسلام ... إن هذا الهجوم العقدي الفكري ... أخذ يتتطور مع السنين حتى أصبح علماً أو علموا لها مدارس ومناهج . وما الاستشراق ومقارنة الأديان ومعاهد الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية إلا من ثمار هذا الهجوم الفكري » (١) .

وعلى الرغم من أن الاستشراق لم يتمكن عبر تاريخه الطويل من تحرير العقيدة الإسلامية وفشل في تحقيق هدف تشويه الدين الإسلامي، فقد نجح في إثارة العديد من المشاكل الدينية والقضايا العقدية التي شغلت المسلمين من ناحية في الرد على شبكات الاستشراق في مجال العقيدة ، ودفعت المسلمين إلى اتخاذ موقف الدفاع ضد الاستشراق، الأمر الذي كان له تأثيره على الفكر الإسلامي الحديث ، وصيغه بالصيغة الدفاعية ، وابعاد العلماء المسلمين عن الدراسة العلمية المعمقة في أمور دينهم ، والسعى إلى حل القضايا الإسلامية المعاصرة من خلال

التأمل العميق في تراثهم الإسلامي، وابحاث الحقول المناسبة لدينهم وحضارتهم لمشاكل الحياة الإسلامية الحديثة وقضايا التنمية التي تواجهها البلاد الإسلامية . لقد نجح الاستشراق في جذب الفكر الإسلامي الحديث إلى النظر في المشاكل والشبهات التي يشيرها المستشرقون، ووضع المسلمين في موقف الدفاع ، وصرف نظرهم عن التعمق في دينهم وأجبرهم على متابعة القضايا الكيدية ، والشبهات والتحريفات ، والأباطيل التي امتلأت بها الكتابات الاستشرافية .

ومن الممكن إحصاء الآثار السلبية للفكر الاستشراقي في المجال الديني فيما يلى :

١- إثارة الشكوك في العقيدة :

عمل الاستشراق على إثارة الشكوك لدى فريق من العلماء المسلمين في عقيدتهم ، وفي القيم الدينية والحضارية المنشقة عن هذه العقيدة ، وقد كان التأثير الفكري الاستشراقي عظيما في عدد من هؤلاء المسلمين الذين تعلموا في الغرب ، أو الذين تحقق لهم نوع من الاتصال بالغرب وحضارته ومؤسساته الثقافية ، فأصابهم ما أصاب الغرب عامة من هجر للدين ، واحتقار له ، والفصل بينه وبين أمور الدنيا . وقد خضع هؤلاء للقيم الغربية وتأثروا بمعطيات الحياة الغربية، وحاولوا نقل قيم الحضارة الغربية إلى عالمنا الإسلامي على اعتقاد منهم بأنضباطية هذه القيم على القيم الإسلامية نتيجة الانبهار الشديد بحضارة الغرب وتقديره العلمي والتكنولوجي ، والأخذ بظاهر الحضارة الغربية، والاعتقاد في عجز الحضارة الإسلامية عن استيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا الغربية بسبب ارتباط حضارة الإسلام بالدين الإسلامي. ونادوا بفصل الدين عن

الدنيا ، وعزل الإسلام عن حضارته معتقدين أن التخلف العلمي لل المسلمين في العصر الحالي سببه ارتباط المسلمين بدينهم بينما تقدم الغرب لأنه هجر الدين وفصل بين الدين والدنيا .

ومن الواضح تأثير هؤلاء بالظاهر المادية للحضارة الغربية وعدم تعمقهم في فهم المشاكل الحضارية التي لجأت عن الاستفرار في الحضارة المادية حين انفصلت عن الدين ، وأصبحت بلا رقيب ديني أو أخلاقي يوجهها ، وبعدد لها هدفها ومسيرتها . كما أنهم لم يتعصروا في فهم دينهم الإسلامي وتراثهم وحضارتهم الإسلامية وبدل تاريخ الحضارة الإسلامية دلالة حاسمة على إمكانية قيام حضارة مادية معتمدة على قيم دينية وأخلاقية تحرسها ، وتضمن لها استمرارها وصلاحيتها ، وتبعدها عن السقوط في شرور المادة المطلقة التي وقعت فيها الحضارة الغربية الحديثة . لقد حققت الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها أقصى مراحل التقدم العلمي بسبب انشاقها عن الدين الإسلامي ، وأخذها تيمها ومبادئها عن هذا الدين ، فكانت حضارة صالحة لكل زمان ومكان ، وخالية من المفاسد والشرور التي تنتجه عن سيادة المادة على الحياة الإنسانية .

كما أثيرت الشكوك لدى بعض المسلمين في العديد من الموضوعات الدينية من بينها التهوي من أمر الكتب المقدسة ، والنظر إلى القرآن الكريم والحديث النبوى ومصادر العقيدة الإسلامية على أنها خاضعة للنقد العقلى ، وغض المسلمين على ضرورة التحرر في دراسة هذه الكتب والمصادر الدينية وإخضاعها للرؤية النقدية العقلية ، وبالتالي التقليل

من قداستها والتخفيف من احترام المسلمين لها، بل والمحض على هجرها واستبدالها بالقوانين الوضعية والقيم الإنسانية التي لا تستند إلى مصدر إلهي. والنظر إلى العديد من العقائد على أنها أمور غريبة وأسطورية لا يستطيع العقل الإنساني اثباتها، وبالتالي لابد من اخضاعها للدراسة النقدية العقلية وهجر كل ما يرفضه العقل.

وتأثر بعض المسلمين بهذا الاتجاه الاستشرافي العلماني هو نتيجة الجهل بطبيعة الدين الإسلامي ، وهو دين العقل والفطرة السليمة ، والذي لا يتناقض والعقل في كبيرة أو صغيرة ^(٢) فهو الدين الداعي إلى إعمال العقل في أمور الدين والدنيا ، والداعي إلى ضرورة وأهمية التعلق والتدبر والتأمل والتفقه وغير ذلك من العمليات العقلية التي دعا إليها القرآن الكريم والحديث النبوى ، والدين الإسلامي يدعو إلى استخدام العقل في فهم الدين وتفسير الوحي الإلهي ، واستنباط الأحكام والأدلة ، وفي تنظيم شئون الدنيا وجعل هؤلاء العلماء، المختلفة التي دفعت المستشرقين إلى التقليل من شأن الدين والوحى ، وما نتج عنه من تقديس للعقل وعبادة له . فالأحكام التي أراد المستشرقون نشرها بين المسلمين في شأن القيمة المطلقة للعقل الإنساني تستند إلى خلفية فكرية غريبة خالصة لا صلة لها بطبيعة الدين الإسلامي وطبيعة عقيدته الغراء . فالمستشرق ابن بيته الثقافية ، وهو كفري - نصرانى أو يهودى - اكتشف منذ زمن طويل عقم الديانتين النصرانية واليهودية ، وعجزهما عن مواجهة الحقائق العلمية التي أتى بها عصر النهضة الأوروبية والشودة العقلية التي تحقت في ذلك العصر الذي دخل بالغرب في عصر العلم والتكنولوجيا .

وهنا يجب تتبّيه المسلمين - خاصة المؤثرين منهم بالاستشراق والمتّهرين بـ«تائجه» - إلى حقيقة أساسية في الدراسات الاستشرافية خاصة في مجال العقيدة الإسلامية . وهذه الحقيقة هي أن الأحكام الاستشرافية والأراء التي قيلت في شأن العقيدة الإسلامية هي في حقيقة الأمر أحكام وآراء وضعت في شأن الديانتين النصرانية واليهودية أصلاً . فقد نتج عن ارتفاع شأن العقل في الغرب منذ عصر النهضة الأوروبية أن تم إخضاع الدين للعقل فأصبح الدين في الغرب موضوعاً للعقل والتحليل العقلي . ونتج عن النقد العقلي لليهودية والنصرانية - وهو الديانتان الأساسية في الغرب في عصر النهضة - اكتشاف ضعف الأساس العقلي لهاتين الديانتين . وهو اكتشاف منطقى ومعقول ، ولم يكن نتيجة تعسّف أو مغالاة في استخدام العقل في فهم اليهودية والنصرانية . فمن المعروف لنا كمسلمين أن اليهودية والنصرانية تم تحريفهما على يد المعتقدين فيهما ، وتحولت الديانتان بسبب كثرة التبديل والتفسير من ديانتي وهي يحترم العقل ويحضر على استخدامه إلى ديانتين أسطوريتين خرافيتين ، وذلك لكثره ما دخل فيهما من معتقدات وثنية ، ومن عناصر دينية غريبة على التوحيد والوحى وبعيدة عن متناول العقل الذي فشل في تقديم تبريرات عقلية للمراد الأسطورية الوثنية التي تسربت إلى الديانتين .. وقد فشلت الديانتان في الاختبار العقلى الذى نصبه لهما عصر النهضة الأوروبية بحسباته وشكاكه العقلية البحتة . وخلال هذه المهملة العقلية على اليهودية والنصرانية تم إخضاع كتبهما المقدسة للدراسة العقلية الناقدة . وكما فشلت الديانتان في الاختبار ، كذلك أيضاً أثبتت البحث العلمي النقدي

للعهد القديم والعهد الجديد أنهما كتابان من وضع الإنسان ، ومتنان بالكثير من المادة غير العقلية أي التي لا يقبلها العقل ، وهي المادة الأسطورية الخرافية التي تسرت إلى هذه الكتب من الوثنيات المحيطة بهما في بيئة الشرق الأدنى القديم .

وعندما نجح علماء نقد الكتب المقدسة في الغرب في نقد اليهودية والنصرانية وكتب العهدين القديم والمسيحي اعتقد بعض المستشرقين أن المنهج العقلي الذي تم تطبيقه على اليهودية والنصرانية صالح للتطبيق على الإسلام وأن الأسلوب المستخدم في نقد العهدين القديم والمسيحي صالح لنقد القرآن الكريم .

وقد أخطأ الاستشراق عدة أخطاء حين استعار منهجه العلماء الغربيين الناقدين لليهودية والنصرانية لنقد الإسلام وكتابه الكريم ، وقد أخطأ المتأثرون بالاستشراق من علماء المسلمين حين جهلوا هذه المخلفية الثقافية للمناهج الاستشرافية ، وحين تجاهلوا الأساس العقلي للدين الإسلامي دين العقل والفطرة ، وخلو هذا الدين الحنيف وكتابه العظيم من الأساطير والخرافات التي اتهمت بها عن حق اليهودية والنصرانية .

والخطأ الاستشرافي الأول يكمن فيأخذ منهجه غربي صالح للتطبيق على اليهودية والنصرانية وتطبيقه عن تعسف على الإسلام . والخطأ الثاني يتضح في تجاهل طبيعة الأسباب التي أدت إلى تطور المنهج النقدي العقلي في الغرب ، وأن هذه الأسباب لم يكن لها وجود بالنسبة للإسلام . والخطأ الثالث عدم الاعتراف بالاختلافات الجوهرية بين الإسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى ، والالتزام بمنهج واحد

في دراسة هذه الأديان مجتمعة . أما الخطأ الرابع فيظهر في سوء استخدام المنهج العلمي النقدي ، وهو استخدامه في حالة الإسلام من أجل التشويه فقط لا غيره ، فهو سلاح لمحى مع اليهودية والنصرانية ولا مانع عند المستشرق المفترض غير الموضوعي من استخدامه لتشويه صورة الإسلام مع علمه التام بعدم صلاحية هذا المنهج لدراسة الإسلام .

ويعتبر المستشرق اليهودي أجناس جولدتساير المسئول الأول عن استعارة هذا المنهج الغربي في نقد اليهودية والنصرانية وتطبيقه على الإسلام دون مراعاة للاختلاف الجوهري بين الإسلام وهاتين الديانتين من حيث عقلانية الإسلام في مقابل أسطورية اليهودية والنصرانية ، وكذلك بالنسبة لكمال الإسلام كدين في مقابل التطور التاريخي الذي مرت به اليهودية والنصرانية . فقد اعتير جولدتساير الإسلام ديناً متطرفاً مثله مثل اليهودية والنصرانية ، يعني أنه خاضع للموافل التاريخية وما تتركه من مؤثرات على الدين . ولذلك فقد أخطأ جولدتساير الإسلام في المنهج التأثير والتاثير^(٢) اعتقاداً منه في أن الإسلام مر بمراحل تطور ، وتأثير بغيره من الأديان ، ولذلك يجب إخضاعه لمنهج النقد التاريخي الذي أخطأه له من قبل اليهودية والنصرانية . وهي بلا شك محاولة بغيضة من جولدتساير للقضاء على أصالة الدين الإسلامي ، والحكم عليه بأنه استمد معتقداته من ديانات سابقة عليه أو لاحقة به، وبأنه دين خاضع للتطور مثله مثل بقية الديانات وخاصة اليهودية والنصرانية ، وكما هو معروف فإن جولدتساير هو صاحب نظرية التطور الديني للإسلام^(٣) والتي طبقها على العقيدة والشريعة على وجه الخصوص .

ويجب التنبيه على الدراس المسلم للاستشراق أن بهتم بتتبع الخلفية الثقافية للاستشراق والمستشرقين ، ومعرفة المنهج الاستشاراقى ومصادره فى الفكر الغربى ، ونقده من حيث عدم صلاحيته للتطبيق على الإسلام وحضارته ، إذ لم يفرق المستشرق بين مشاكل اليهودية والنصرانية ، واعتبرها مشاكل عامة لكل الأديان ، ومن بينها الإسلام . وطبق نفس المنهج بدون تمييز ، وفي حالة تطبيق المنهج النجدى الغربى على الإسلام كان القصد الاستشاراقى الأساس هو تشويه الدين الإسلامي ، والنيل من أصلته، وربطه بالديانات الأخرى ، والقول بأنه متأثر بها بهدف تضليل الشخصية الدينية المستقلة للإسلام كدين والتشكيك فى كماله^(٥) .

٢ - تشويه صورة الإسلام في الغرب :

ومن الآثار السلبية للفكر الاستشاراقى تشويه صورة الإسلام والمجتمع الإسلامي في الغرب . ويعتبر هذا الأمر من أخطر الآثار السلبية للاستشراق . فالمسلمون في بلادهم ثابتون على عقيدتهم ، عاملون بها ومطمئنون إليها ، بينما صورة الإسلام خارج العالم الإسلامي يتم تشويهها وتقديمها في صورة مزيفة غير حقيقة بواسطة الاستشراق . وهي صورة تعطى انطباعاً سلبياً للإسلام كدين وحضارة في ذهن الإنسان الذي تلقى معرفته عن الإسلام من خلال المستشرقين الذين يمثلون المصدر المعرفي الأساسي للمعلومات الخاصة بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية . ولا يوجد مصدر آخر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه في تحسين الصورة الإسلامية ، أو إحداث التوازن المطلوب وإعطاء البديل المعرفي

للاستشراق . وهنا يجب الإشارة إلى تقصير المسلمين في هذا الجانب : حيث تركوا الاستشراق يسيطر على المعرفة الخاصة بالإسلام في الغرب . والواجب تكثيف المجهود العلمي في دائرة الكتابة عن الإسلام ، وحضارته ، ومجتمعاته في اللغات الأوروبية الحديثة ، وأيضاً الاهتمام بترجمة الكتب الإسلامية الجيدة التي تعطي صورة حقيقة عن الإسلام ، حتى يجد القارئ والمشتغل والتخصص الغربي المادة الإسلامية التي نطمئن إلى أنها ستقدم المعرفة الصحيحة والجيدة عن الإسلام ومجتمعاته إلى الغرب .

ولا يخفى أن أحد أهداف الاستشراق الأساسية حجب المعرفة الصحيحة عن الإسلام ، حتى لا يؤثر هذا الدين الكامل في أهل الغرب . وهي حرب فكرية موجهة لمنع انتشار الإسلام في العالم الغربي ، والتعتيم على المثقف الغربي ، وإعطائه معلومات خاطئة ومضللة عن الإسلام ، وتنفر الغرب منه كدين وحضارة . ولاشك في أن كلمة المستشرقين مسموعة في الغرب ، لأنهم علماء تخصصوا في الإسلام ، وأصبحوا خبراء في شؤون المجتمعات الإسلامية ، وما يصدرونه من أحكام وأراء عن الإسلام والمجتمع الإسلامي يتقبله المجتمع الغربي دون أن يشك في صحته . فالمستشرقون هم الحجة في تخصصهم ، وعادة ما يأخذ برأيهم في كل المسائل التي تخص العالم الإسلامي . وقد اكتسبوا ثقة الإنسان الغربي بما يمثلونه من علم وخبرة نادرة يستعين بها المسؤولون الغربيون في الشؤون السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية الخاصة بالبلاد الإسلامية .

٣ - التعظيم من شأن الفرق الدينية ودورها في المجتمع الإسلامي :

لا يخفى على الدارس المسلم للاستشراق هذا التركيز الشديد على الدراسات الخاصة بالفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً ، وكذلك الاهتمام بدراسة أوضاع الأقليات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامي . وبهدف المستشرقون من وراء هذا الاهتمام إلى تعظيم دور الفرق الدينية في الحياة الإسلامية ، والتهويل من شأن تأثيرها في المجتمع الإسلامي . والقصد من هذا كله النيل من وحدة الإسلام كدين ، ومن وحدة المجتمع الإسلامي ، ووحدة الحضارة الإسلامية . فالصورة التي يقدمها المستشرق تؤكد على عدم وجودة العالم الإسلامي وانقسامه إلى فرق دينية واجتماعية متعددة ، وتؤكد أيضاً على وجود عدة عقائد إسلامية ، وبالتالي عدة مجتمعات إسلامية تتوزع فيها الحياة وتختلف أشكالها بما يؤدي إلى الاعتقاد الاستشرافي في عدم وجود أمة إسلامية واحدة كما يعتقد المسلمين .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل يبالغ الاستشراق في الدور الديني للفرق ، فيعتبرها مسؤولة عما يسميه بتطور العقيدة في الإسلام ، وتعدد الرؤى العقدية ، مما يعتبره الاستشراق من باب إثراه . الإسلام فكرياً من خلال تعدد المذاهب والفرق . وفضلاً عن هدف إظهار الإسلام في شكل الدين الذي يحتوى على عدة مذاهب قدية تشبيهها له بالوضع في اليهودية والنصرانية ، فقد اتجه الاستشراق حديثاً ويساعده التنصير والاستعمار إلى تكوين واستحداث فرق دينية جديدة في المجتمع الإسلامي بهدف زيادة عوامل الفرقة بين المسلمين ، والعمل على خلخلة

التوازن في المجتمع الإسلامي . ومن المعروف الدور الذي لعبه الاستعمار والتنصير بمساعدة الاستشراق في ظهور بعض الفرق المعادية للإسلام داخل المجتمع الإسلامي خاصة البابية والبهائية والقاديانية^(٧) . وكذلك تشجيع الدراسات الخاصة ببعض الفرق القديمة مثل الشيعة والمعتزلة . وألمحاس الشديد الموجه لدراسة التصوف . والهدف من هذا الحماس العلمي إحياء هذه الفرق القديمة ، وخلق مكان جديد لها داخل الفكر الإسلامي ، والعمل على تفتيت الوحدة الدينية والفكرية للمجتمع الإسلامي ، وذلك من خلال تزويقه إلى عدة مجتمعات داخلية تختلف في العقيدة والمذهب والفكر .

ولابد من الإشارة السريعة إلى أسباب الاهتمام الكبير الذي أولاه الاستشراق للدراسات الخاصة بالتصوف والذي تفرغ له عدد من عمالقة الفكر الاستشرافي في القرنين الأخيرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر نكلسون R. A. Nicholson وهنري كوربان H. Corbin ولويس ماسينيون Massignon . L. ، ومارجرت سميث Margaret Smith . هذا بالإضافة إلى مئات من المستشرقين الذين جعلوا من التصوف أحد أبرز اهتماماتهم في الدراسات الإسلامية . ومن أهم هذه الأسباب تشجيع المتصوفة والعمل على مساعدتهم في إحياء طرقوهم التصوفية من أجل مزيد من التفتيت للمشاعر الدينية عند المسلمين ، وإظهار المجتمع الإسلامي في صورة المجتمع المفكك دينياً ، والمحظى على العديد من المذاهب المعايرة للعقيدة الإسلامية عند أهل السنة والجماعة ... ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد تطرف المستشرقون أياً تطرف

في النظر إلى التصوف على أنه يمثل الروح الدينية الحقيقة في الإسلام، أو كما يقول الدكتور زقزوق إنه يمثل عندهم الإسلام الحي: "فإسلام الكتاب والسنّة يعد في نظر مستشرق معاصر مثل كبسنجل إسلاماً ميتاً. أما الإسلام الحي الذي يجب الاهتمام به و دراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراوיש في مختلف الأقطار الإسلامية" (٨١) وينظر المستشرقون إلى التصوف على أنه يمثل أقصى مراحل التدين وذروة التقوى والشعور الديني عند المسلمين ..

ومن الأسباب الأخرى الهامة وراء الاهتمام الاستشراقي بالتصوف ، أن التصوف عند المسلمين متأثر بأشكال التصوف المعروفة في عدد من الديانات مثل الهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية . ولهذا فالتصوف عامل تفسير هام بين الإسلام والديانات الأخرى خاصة النصرانية التي اعتبرها بعض المستشرقين أحد التابع الهامة للتصوف عند المسلمين . ويرتبط بهذا السبب سبب آخر هام وهو أن التصوف أحد العوامل المساعدة على ضرب أصلة الإسلام واستقلاليته كدين من خلال ربط الإسلام فكريًا ودينياً بأديان أخرى ، والقول باعتماد الإسلام على هذه الأديان في استعارة معظم عقائده ومفاهيمه .

ويعلم المستشرقون تمام العلم أن التصوف يمثل نوعاً من الممارسة الدينية المرفوعة عند أهل السنّة والجماعة ، ولذلك يركزون على دراسته وإبرازه وتصويره بأنه يمثل الروح الدينية الإسلامية الحقيقة ، ويشجعون قيام الطرق الصوفية ، والعمل على انتشارها في العالم الإسلامي حتى ينتهي الأمر إلى تجزئة العالم الإسلامي دينياً ، وتنمية التجزئة الموجودة فعلاً إلى سنته وشيعته بإضافة التصوف .

والرؤى الاستشرافية للتصوف ترى فيه عاملًا هامًا من عوامل إخلال التوازن الذي حققه الإسلام بين أمور الدين والدنيا . فالحياة الإسلامية حياة متوازنة ، ومفهوم الدين في الإسلام يتصف بالشمولية ، وتفطية كل مجالات الحياة الإنسانية ، وكل الأنشطة التي يقوم بها الإنسان ، ويدون تفرقة لما يسمى في الغرب وحضارته بالديني والدنيوي . ومن المعروف أن تاريخ التصوف يشهد على تركيز أهل التصوف على الديني في مقابل إهمال الدنيوي فضلاً عن الفهم الصوفي الخاطئ لما هو مقصود بالديني . لقد سنت الصوفية لأنتباعها نهجًا في الحياة الدينية يقوم على أساس من الزهد في الدنيا والتقطش ، والدعوة إلى التواكل ، وهجر العمل الإنساني ، وعدم الأخذ بأسباب المدنية ، وهجر الحياة المادية بأكملها عند بعض غلة المتصوفة ، الأمر الذي قرب التصوف من الرهبنة النصرانية ، خاصة بعد رفع التكاليف الشرعية ، وعدم الالتزام بأداء العبادات الإسلامية ، والاعتقاد في مفاهيم دينية خاطئة فيما يتعلق بإمكانية الاتصال بالخالق (جل وعلا) أو الاتحاد معه أو تحقيق ما يسمى بوحدة الوجود . وهذه الأمور قررت بين التصوف ونظام الرهبنة في النصرانية ونظم التصوف في الهندوكية والبوذية بعد أن ضاعت معالم الإسلام في المنهج الصرف . وهو منهج قررها في الحقيقة من الأديان الأخرى خاصة ديانات التصوف ، وأبعدها عن الإسلام دين العمل والتکاليف والعبادات . وقد رفض الإسلام هذا الاتجاه الصوفي برفضه للرهبنة ، ونظرته إلى العمل على أنه عبادة وحضة المسلم على إحداث التوازن بين حياته الدينية والدنوية مصداقاً لقوله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »^(٩) .

ويندخل في الرؤية الاستشرافية للتتصوف اقترابه من النصرانية وهو أمر يشجع عليه المستشرقون عامة والمنصرون منهم خاصة . وذلك لأن في التتصوف تضييع الشخصية الإسلام كدين مستقل عن النصرانية ، وجذب المسلمين لكي يأخذوا بشكل ديني هو أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام ، فالمعتقدات الصوفية المختلفة في الألوهية تجعلها قريبة من النصرانية ، خاصة ما أشرنا إليه من اتحاد، وتجسيد ، وحلول ، ووحدة وجود . فهذه كلها مصطلحات للألوهية معروفة في النصرانية ، وقد قال بها بعض غلاة التتصوف مثل الحجاج وابن عربي .

وهذه كلها مصطلحات صوفية تشير إلى معتقدات صوفية مرفوضة إسلامياً ، ولا تتفق مع النظرة الإسلامية إلى طبيعة الألوهية ، وطبيعة العلاقة بين الإلهية والإنسانية . وهي علاقة قامت على أساس من طاعة المخلوق لإرادة الخالق سبحانه وتعالى ، واستسلام الإرادة الإنسانية للمشيئة الإلهية ، وعدم الخلط بين الإلهي والإنساني ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن المخلق ، والامتناع عن تصويره أو تجسيده أو التمثيل به في أية صورة من الصور «ليس كمثله شيء»^(١) . والتشدد على إنسانية الإنسان ، وعدم الارتفاع به ، أو الخروج به من دائرة الإنسانية إلى أية مرتبة تقربه من الألوهية وتخلطه بها ، كما فعلت الصوفية حين قالت بغاهم المخلول والاتحاد ، أو اتحاد الإنسان في الوجود كما يقول أصحاب وحدة الوجود . فقد فصل الإسلام فصلاً قاطعاً بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان ، وأكيد على اختلاف الذات الإلهية عن الذات الإنسانية ، واعتبر العلاقة القائمة بين الإنسان والله سبحانه وتعالى هي علاقة الطاعة ... طاعة المخلوق لإرادة الخالق.

ويجب أن توجه الأنظار هنا إلى أن تشجيع الاستشراق للتصوف -نظرياً على مستوى الدراسة ، وعملياً على مستوى تشجيع التصوف والعمل على انتشاره في العالم الإسلامي -. إنما هو سعي إلى تأكيد شبهة استشرافية أساسية يحاول الاستشراق إثباتها وتأكيدها من كل الوجوه ، ألا وهي شبهة عدم أصالة الإسلام كدين ، والإدعاء بأن الإسلام مأخوذ من ديانات سابقة . فهو إعادة صياغة لفاهيم دينية وجدت في اليهودية ، والنصرانية ، والهندوكية ، والبوذية وغيرها من الأديان . وقد انصبت العدید من الدراسات الاستشرافية على هذا اللون من الدراسات الذي يرد تعاليم الإسلام وعباداته إلى أصول في الديانات الأخرى . وسأخذ المستشرقون في هذا المخصوص ببداً التأثير والتاثير والقول بأن الدين السابق يؤثر على الدين اللاحق . ولأن الإسلام هو آخر الأديان الكبرى فقد أخذ مفاهيمه الأساسية من الديانات السابقة عليه^{١١١}.

ومن أشكال الدراسات الاستشرافية المساعية إلى إحداث التغيير الديني في المجتمعات الإسلامية تلك الدراسات الخاصة بالفرق المغالفة للإسلام ، وعلى رأسها فرق الشيعة والفرق التي ظهرت حديثاً في المجتمع الإسلامي ، مثل البهائية والبابية وغيرها . وتخدم دراسات الشيعة والفرق المحدثة عدة أهداف استشرافية منها خلخلة الوحدة الدينية للمسلمين ، والعمل على تجزئة الأمة الإسلامية الواحدة إلى عدة أمم ، وتشجيع الشيعة والفرق الأخرى على الشورة والتمرد ومحاربة مجتمع أهل السنة والجماعة . وقد حقق الغرب حديثاً وبإيعاز من

الدراسات الاستشرافية ، وتقارير المخبراء العاملين في الجهات الحكومية المسئولة في الغرب ، نجاحاً في إثارة الشيعة - ممثلة بالذات في إيران - ودفعها إلى إثارة القلاقل في المجتمع الإسلامي ، وتصدير أفكار «الشورة الإيرانية» إلى خارج إيران في محاولة لنشرها في العالم الإسلامي بشتى الوسائل الممكنة ، ومحاولات نشر الأفكار الشيعية في الجمهوريات الإسلامية الجديدة التي استقلت حديثاً عن الاتحاد السوفييتي المنحل ، والقيام بدور بارز في توجيه هذه الجمهوريات الوجهة التي تخدم الأهداف الإيرانية المتعددة ، ومن بينها هدف نشر المذهب الشيعي . وتتجدد الفرق البهائية والبابية والبكداشية تشجيعاً كبيراً من الغرب . ويساعد الاستشراف مساعدة كبيرة في دراسة هذه الفرق وتأصيل مفاهيمها ونشر نصوصها ، والتعرّف بزعامتها ، وتقديم العون العلمي اللازم لأبنائهما للدراسة في جامعات الغرب ، ويعاملهم الغرب بشكل عام على أنهم مضطهدون في العالم الإسلامي ، وواقعون تحت الاخطهاد الإسلامي فيسخرون لهم بالتجوّه إلى الغرب ، وبينون لهم المعابد والمعاقيض الضخمة التي يمارسون فيها شعائرهم وحياتهم الدينية ، ويؤكدون فيهم الترفة المستقلة عن الإسلام والمسلمين ، ويدفعون بهم إلى التمرد والشورة ضد المسلمين ، والكتابة ضد المسلمين . ويشير الدكتور زقزوقي إلى الاهتمام الاستشرافي بالفرق في قوله : «يؤكد الاستشراف بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، ويعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة ، والمستشركون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي ، ودائماً يهتمون بكل غريب وشاذ»^(١٢) .

٤ - التركيز الاستشرافي على الطوائف والأقليات في المجتمع الإسلامي :

بالإضافة إلى الاهتمام الاستشرافي بالفرق الإسلامية وجّه الاستشراف جانبياً كبيراً من جهوده إلى دراسة وضع الطوائف والأقليات في المجتمعات الإسلامية ، والهدف من هذه الدراسات يقترب كثيراً من هدف دراسة الفرق المخالفة للإسلام : حيث يركز الاستشراف على إظهار المجتمع الإسلامي بظاهر المجتمع المكون من عدة طوائف وأقليات لها مذاهبها المختلفة ولها عاداتها وتقاليدها المتباينة ، ولها حياتها الخاصة داخل المجتمع الإسلامي ، الأمر الذي يظهر هذا المجتمع في النهاية بأنه يتكون من عدة مجتمعات مختلفة لا تجمعها رابطة . وتحيل بعض الدراسات الاستشرافية إلى التضخيم من حجم الأقليات والطوائف والتعظيم من دورها في الحياة الإسلامية وفي الحضارة الإسلامية ، مما يوحى في النهاية إلى أن هذه الحياة والحضارة الإسلامية ليست من صنع المسلمين ، ولكنها من نتاج هذه الطوائف والأقليات ، وأن النتاج الفكري والحضاري الإسلامي إنما هو من عمل اليهود والنصارى والمجوس والهندوس وغيرهم من أهل الأديان والحضارات الأخرى .

وعادة ما يعمد المستشرقون إلى إظهار الطوائف والأقليات في صورة مجتمعات مضطهدة داخل المجتمع الإسلامي بهدف تشويه صورة الإسلام خاصة في الغرب وإظهاره في صورة الدين المتغصب المضطهد لطوانفه غير المسلمة . وتحث الدراسات الاستشرافية أهل الطوائف والأقليات على التخلص من الاضطهاد المزعوم ، وتشجيع الطوائف على التمرد

والشورة وإثارة الفتن والاضطرابات داخل المجتمع الإسلامي ، وهي إحدى وسائل الاستشراق من أجل زعزعة المجتمع الإسلامي وأضعافه من الداخل . ويرتبط بهذه الدعوة الاستشرافية بــ الزعة القومية لدى الطوائف والأقليات ونشر الدراسات التي تحاول إثبات اختلافها عن الأمة الإسلامية ، وتحديد هوية قومية لها ، ودفعها إلى المطالبة بالاستقلال وأشكال الحكم الذاتي التي تتضمن لهم بذوره وتطوره شخصيتهم القومية ، وتعزلهم عن المجتمع الإسلامي ، وتقطع لهم أجزاءً من العالم الإسلامي بهدف تجزئه هذا العالم وشرذمته وتقسيمه إلى دويلات طائفية لاضعافه والقضاء على وحدته . ويجب أن نشير في هذا المخصوص إلى أن العديد من المستشرقين عملوا كضباط وجنود وموظفين في الدوائر الاستعمارية لبلادهم في بلاد المسلمين ، وقد لعبوا دوراً أساسياً من خلال دراساتهم النظرية وجهودهم العملية في دفع أهل الطوائف والأقليات إلى المطالبة بالاستقلال القومي عن الحكومات الإسلامية ، وبالحكم الذاتي في بعض المناطق ، من أجل مساعدتها على تكوين جماعات سياسية وكيانات قومية مناهضة للحكم الإسلامي . وقد سعت الدراسات الاستشرافية في هذا المخصوص إلى تعميق الصراع بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، وهو صراع اتخد شكلين في الدراسات الاستشرافية : الشكل السياسي الذي يسعى إلى إثارة القوميات وبعث الروح القومية لدى الأقليات ، وتسخير ذلك نظرياً من خلال الدراسات التي تحاول تأصيل الفكر القومي للأقليات ، وعملياً من خلال تقديم العون السياسي اللازم لمساعدة الأقليات على تحقيق

هويتها القومية، ومن ثم تحقيق الاستقلال عن الأمة الإسلامية والانفصال عنها.

أما الشكل الثاني فهو شكل ديني يعمل على تنمية الصراع الديني بدفع الأقليات إلى التحول إلى جماعات دينية داخل المجتمع الإسلامي، وربط هذه الجماعات الدينية بأطر قومية، ودفعها إلى تحقيق الاستقلال الديني والسياسي عن الأمة الإسلامية مصوّرين لهذه الطوائف والأقليات أن خلاصها يتمثل في خروجها على الأمة الإسلامية وانفصالها عنها. وقد مارس الاستشراق هذا الدور بشكل واضح في مصر مع الأقباط مشجعاً الفكر القومي عندهم، ومحولاً نصرانيتهم إلى نصرانية تفصلهم عن المسلمين في مصر. ويظهر هذا أيضاً في إحياء النزعة القومية لدى السوريان في العراق وسوريا ولبنان ومساعدتهم في تكوين رؤية قومية دينية تظهر في محاولات إحياء اللغة السريانية كلغة للحديث، وتشجيع الازدواجية اللغوية بينهم. وهناك مؤسسات استشراقية خاصة في بلاد الشمال الأوروبي مثل هولندا وبلجيكا تعمل على إحياء السوريان كشعب وتشجيع بقایا السوريان في العراق وسوريا ولبنان على تكوين رؤية قومية دينية خاصة بهم. وقد وصل هذا التشجيع إلى حد تخصص بعض هذه المراكز في مسألة إحياء اللغة السريانية كلغة للحديث والكتابة بين السوريان. وتقوم هذه المراكز بطبع الكتب التعليمية الحديثة في اللغة السريانية وتعيد طبع المؤلفات السريانية القديمة، وتشجع على التأليف الحديث في اللغة السريانية إلى غير ذلك من الجهد الساعية إلى إحياء اللغة كإحدى مقومات بع

القومية السريانية ، ويجب أن نشير أيضًا إلى المحاولات العديدة المشابهة التي يقوم بها المستشرقون في بلدان القارة الإفريقية من خلال إحياء اللغات القبلية والقومية ، وترجمة العهد الجديد إلى مئات اللغات واللهجات الإفريقية ، من أجل تيسير التنصير ، وتشجيع عملية إحياء هذه اللهجات كعامل قومي هام في بعث التزعة القبلية والقومية لدى العديد من الأفارقة .

٥ - التمكين للصهيونية في العالم العربي :

ويذكرنا الحديث عن بعث القوميات واللغات القومية بالجهود التي يبذلها الاستشراق ، خاصة الاستشراق اليهودي والصهيوني ، من أجل بعث القومية اليهودية، وتمكين اليهود من تكوين رؤية قومية يهودية ، وتحويل اليهود من جماعة دينية إلى جماعة قومية ، وربط اليهودية بالقومية فيما عرف باسم الصهيونية ، ولتحقيق هذا قام العمل الصهيوني الاستشرافي على المستوى الفكري والسياسي ببعث اللغة العبرية وتحويلها إلى لغة حديثة معاصرة تستخدم في الحديث والكتابة ، والعمل على تفريح فلسطين من سكانها العرب ، وإقامة دولة يهودية فيها. ويعود للاستشراق الدور الكبير في خلق الصهيونية كفكرة والسعى إلى تحقيقها من خلال الجهد العلمي الاستشرافي سواء على مستوى الدراسات اللغوية لإحياء اللغة العبرية ، أو على مستوى الدراسات التاريخية الساعية إلى تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين وإثبات الأحقية التاريخية والدينية لليهود في فلسطين ، والدراسات الأثرية الموجهة لنفس الفرض ، والدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط وشعوبه،

لتقدیم العرن العلمن فی معرفة العرب وتاریخهم وحضارتهم وديانتهم ، وتوجیه كل هذه المعرفة خدمة المصالح الصهیونیة (١٣) .

وقد كان للاستشراق الصهیونی دور عظیم فی نشر الصهیونیة بين اليهود فی بلاد العالم العربي والإسلامی والغریب ، ودفع يهود العالم الإسلامی إلى الهجرة إلى فلسطین بعد إثارة النزعۃ القومیة فیهم . والحقيقة أن يهود العالم الإسلامی لم تكن لهم مشکلة قومیة فی ظل الدولة الإسلامیة التي رعت حقوقهم ، وحققت لهم التعايش السلمی داخل المجتمع الإسلامی كأهل ذمة ، وأهل كتاب ، فأصبحوا خلال فترات التاريخ الإسلامی مواطنین لهم حقوقهم الدينیة والسياسیة وعليهم ما على المسلمين من واجبات ... ولم ينجذب يهود العالم الإسلامی إلى الصهیونیة إلا بعد ممارسة الضفروط الصهیونیة الشدیدة عليهم للتنازل عن حیاتهم الأمنة فی المجتمع الإسلامی ، والانضمام إلى الحركة الصهیونیة فی مراحلها المتأخرة . فمن المعروف أن ما يسمی بالمشکلة اليهودیة التي أثارتها الصهیونیة هي مشکلة أوروبیة لم يعان منها يهود العالم الإسلامی ، وقد فرضت القومیة اليهودیة فرضاً إجباریاً على كل يهود العالم الإسلامی الأمر الذي أدى إلى فساد علاقته يهود العالم الإسلامی بال المسلمين فأصبحوا بانضمامهم للحركة الصهیونیة من ألد أعداء المسلمين .

وقد اعتمدت الحركة الصهیونیة اعتماداً كبيراً على المستشرقين الصهاینیة فی التنظیر للفكرة القومیة والدعوة إليها بين اليهود . وقد تعاطف المستشرقون النصاری مع اليهود لدوافع سیاسیة ودينیة وحضاریة ، فقد اعتبروا فلسطین اليهودیة أفضل من فلسطین المسلمة ،

فهذا يعد كسباً سياسياً ودينياً للنصرانية في صراعها ضد الإسلام ، بل هو يتحقق عند بعض المذاهب النصرانية شرطاً من شروط القدوم الثاني لل المسيح عليه السلام خاصة عند المذاهب الإنجيلية التي تعتبر عودة اليهود وتحجّمهم في فلسطين أحد شروط قيامه المسيح عليه السلام^(١٤).

وتعتبر قضية فلسطين من أهم القضايا التي اهتم بها الاستشراق اليهودياً أو نصرانياً ، وقد استخدم الاستشراق أسوأ استخدام حين وجهت الإمكانيات الاستشرافية لخدمة المصالح الصهيونية ، ولم يتوقف هذا الاستخدام السلبي عند حدود توجيهه علوم الاستشراق المختلفة لإثبات دعوى الصهيونية في فلسطين ، بل تعدت هذا الهدف وتجاوزته إلى التشويه المقصود لصورة العرب والمسلمين في الغرب وللدين الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وتقديم المجتمع الإسلامي للغرب في شكل مجتمعات بدائية متخلفة يسودها العنف والإرهاب ، وتصوير المجتمع الفلسطيني خاصة والعرب عموماً في صورة مجتمعات بعيدة عن المدنية والتقدم ، وأن الحركة الصهيونية هي حاملة راية التقدم والمدنية والنافذة للحضارة الغربية وقيمها في هذه المجتمعات الباهلة .

٦ - دور الاستشراق في التمكين للتنصير في بلاد المسلمين :

من أهم الآثار الدينية للاستشراق في المجتمعات الإسلامية قيام عدد كبير من المستشرقين بالأعمال الساعية إلى تنصير العالم الإسلامي ، ونشر الثقافة النصرانية في المجتمعات الإسلامية . وقد كان التنصير ولا يزال أحد الأهداف الأساسية للاستشراق ، فقد انتقل الاستشراق من مرحلة الدفاع عن النصرانية قدماً إلى الهجوم على الإسلام ، وذلك من

خلال عدة وسائل من بينها تغريب العالم الإسلامي بنشر الشفاعة الغربية فيه ، ومن أخطرها بلا شك توجيه الحالات التنصيرية إلى بلاد العالم الإسلامي بجذب أعداد من المسلمين بوسائل مختلفة إلى اعتناق النصرانية وتشكيك المسلمين في دينهم في حالة عدم النجاح في إدخالهم في النصرانية .

والدور الذي لعبه الاستشراق في مساعدة التنصير وتمكينه من القيام بعمله في المجتمعات الإسلامية ينحصر في إعداد المنصر وتجهيزه بالمعلومات الازمة عن البلاد الإسلامية : من بينها تعريفه بالإسلام وحضارته ، ولغاته ، ومجتمعاته ، وتاريخه وجغرافيته ، وعمل الدراسات العملية التي تكشف للمنصر مواطن الضعف في المجتمعات الإسلامية ، ودراسة الاحتياجات الازمة في بعض بلاد المسلمين التي تعانى من الفقر والمرض ، وسد هذه الاحتياجات عن طريق الأعمال التنصيرية المسماة بالأعمال الخيرية التي تهدف أصلاً إلى حل مشاكل بعض المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والصحية ، وجذبهم إلى النصرانية من خلال هذه الوسائل التعليمية والطبية والخيرية^(١٥) . وعمل الاستشراق أيضاً من أجل معرفة أفضل الوسائل والسبل لتقديم النصرانية إلى المسلمين ، وذلك من خلال عقد الدراسات المقارنة بين الإسلام والنصرانية ، وتوضيع صلات القرابة بين الديانتين ، والتركيز عليها بهدف اقناع ضعاف المسلمين بأن الإسلام يؤيد النصرانية ويعرف بال المسيح عليه السلام ويعرف بكتب النصارى دون توضيع الموقف الإسلامي الصريح والواضح من هذه المفاهيم^(١٦) .

ولقد كان الاستشراق ولايزال الوسيلة العلمية التي يستخدمها التنصير للتعرف على أوضاع المجتمعات الإسلامية وسلبياتها ، ووجهه الضعف فيها ، والبحث عن ثغرات لتقديم النصرانية من خلالها إلى المسلمين والتعرف على منافذ للتنصير ، وقد كان للاستعمار في القرنين الأخيرين تأثير كبير في توجيهه ومساعدة التنصير في المجتمعات الإسلامية . فقد وفر الاستعمار الحساية الازمة للمنصرين . ويسر لهم حرية الحركة والعمل في البلاد الإسلامية . وساعدهم في تأسيس مراكز للتنصير ومؤسسات للعمل التنصيري تحت الحماية الاستعمارية . وقد عملت هذه المؤسسات بكل قوة ومن منطلق السيادة السياسية للمستعمر فحاوت بشتى الطرق اختراق المجتمعات الإسلامية ، وبناء الكنائس ، وتنمية الأقليات النصرانية والاعتماد عليها في عملية التنصير من الداخل ، ومدّها بالأموال والإمكانات الازمة لنشر النصرانية . واهتم الاستشراق التنصيري أيضاً بإعداد ترجمات العهد الجديد إلى لغات العالم الإسلامي ولهجاته ، ونشر الكتب الشارحة للنصرانية ، والتفسير المختلفة للأناجيل ، والتعريف بالذاهب النصرانية . ويجب أن نشير هنا إلى تعدد جبهات التنصير في العالم الإسلامي ؛ فلكل مذهب نصارى إرسالياته وبعثاته التنصيرية . فالاختلاف الجوهرى بين المذاهب أدى إلى أن تقوم كل كنيسة بعملها التنصيري مستقلاً عن الكنائس الأخرى الأمر الذي أدى إلى تشابك العمليات التنصيرية ، وأختلاط الأمر على المسلمين في مواجهتها ، حيث تتطلب هذه المواجهة معرفة جيدة بكل مذهب نصارى على حدة ومواجهة العمل التنصيري حسب اتجاهه الديني

الكاثوليكى أو البروتستانتى أو الأرثوذوكسى ، بل هى تتطلب معرفة بالماهاب الفرعية المتبعة عن المذهب الرئيسية ؛ حيث نشطت بعض المذاهب الصغيرة والغير عريقة فى العمل التنصيرى من وجهة نظرها المذهبية . ويتعطل مقاومة التنصير بذلك الجهود الإسلامية لحل مشاكل المجتمعات الإسلامية الفقيرة التى تسلل إليها المنصرون مستغلين فقرها واحتياجاتها الاقتصادية ، ويتعطل الأمر سد الحاجات الاقتصادية وتقديم الرعاية الإسلامية الكافية ، وتقوية العمل الدينى والدعوى فى هذه المناطق حتى لا تكون فريسة سهلة للتنصير ، كما يتطلب الأمر سد الطرق أمام التنصير ، وعدم السماح للمؤسسات التنصيرية بـزواله أنشطتها وتشجيع المؤسسات الإسلامية على تقديم الرعاية الدينية والاجتماعية والاقتصادية للفقراء المسلمين .

الفصل الثاني

الأثار السياسية للاستشراق في المجتمع الإسلامي

١ - دور الاستشراق في التمكين للاستعمار في العالم الإسلامي :

نشأ الاستشراق وتطور في ظل الصراع الغربي ضد الإسلام ، وكسلاح فكري من أسلحة الغرب الموجهة ضد الإسلام كدين وحضارة .

وواصل الاستشراق دوره كسلاح علمي وفكري منذ بداية الإسلام وحتى وقتنا الحاضر مرتبطة بالحركات الاستعمارية الأوروبية ، ووظيفة الاستشراق السياسية تقديم المعرفة بالأوضاع السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية الخاصة بالبلاد الإسلامية للقائمين على الحركة الاستعمارية في البلاد الأوروبية المختلفة وذلك لتسهيل عملية الاستعمار ، وتيسير طرق التعامل مع أهل البلاد المستعمرة . ورغم تعدد مراحل الاستعمار فالمرحلة الأخيرة التي تغطى القرنين التاسع عشر والعشرين تعد من أهم هذه المراحل وأخطرها فكرياً وسياسياً على المسلمين : إذ لم يكتف المستعمر فيها بنهب الموارد الاقتصادية ، وفرض السيطرة السياسية والفكرية ، ولكنه اتجه إلى إحداث التغيير في التفكير السياسي عند المسلمين وإجبارهم على تبني النظم السياسية الغربية والتخلي عن النظم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال دور فكري قام به الاستشراق السياسي الذي نقد النظم الإسلامية ، ووصفها بالجمود

والتخلف وعدم الصلاحية ، وشرح النظم الغربية ، وبين محاسنها وزينتها في أنظار المسلمين ، وحاول فرضها بالقوة في كثير من الأحوال ، وأعد من بين المسلمين علماء تابعين للاستشراق يروجون للنظريات السياسية الغربية وينشرونها بين المسلمين . وفي الفترة الاستعمارية الحديثة احتلّت عمل المستشرق بعمل المستعمر ، بل وقد كان المستشرق هو المستول الاستعماري نفسه حين عين العديد من المستشرقين كموظفي في الدوائر الاستعمارية ، وحين جذب الاستشراق عدداً من الضباط والجنود والمترجمين في هذه الدوائر الاستعمارية فوظفوا خبرتهم خدمة الاستعمار، وجمعوا بين العمل الاستشاري والعمل الاستعماري ^(١٦) . وبعد انحسار الاستعمار حمل العديد من المستشرقين كخبراء في وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية في مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والاجتماع لتقديم المعرفة الالزامية عن شعوب المسلمين للدوائر السياسية في بلادهم ، وهكذا جذب العمل السياسي عدداً كبيراً من المستشرقين فساعدوا بلادهم بتقديم المعرفة العلمية والتقارير السياسية والاقتصادية عن البلاد الإسلامية التي تخصصوا فيها ، وشاركوا في وضع استراتيجيات بلادهم والتخطيط لسياساتها في بلاد المسلمين .

ونتيجة لهذا العمل الاستشاري السياسي عبر قرون من الصراع الفرس ضد الإسلام تكون الاستشراق من إحداث العديد من التأثيرات السلبية في الفكر السياسي الإسلامي نتج عنها تغييرات خطيرة في مسيرة التاريخ السياسي للمسلمين في القرنين الأخيرين .

٢ - بحث القوميات في العالم الإسلامي :

عمل الاستشراق - كجناح فكري للاستعمار الغربي - على بعث الروح القومية في الشعوب الإسلامية كواحد من الوسائل الهامة في سبيل تجزئة الأمة الإسلامية وتفتيتها إلى عدة شعوب بعيداً عن الرابطة الإسلامية التي ربطت المسلمين عبر العصور. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف نشط الاستشراق نشاطاً علمياً واضحاً في مجال الدراسات القومية التي ركزت على دراسة تاريخ كل شعب إسلامي على حدة ، بهدف تحقيق العزل الديني والثقافي للشعوب الإسلامية عن بعضها البعض ، وإضعاف العامل الديني كعامل أساس في ربط الشعوب الإسلامية ، وتأصيل الوجود القومي لكل شعب ، وذلك بالعودة إلى التاريخ القديم السابق على ظهور الإسلام ، وعلى دخول الشعوب الإسلامية فيه ، وإبراز الصفات والسمات القومية وأعلاها على السمات الإسلامية ، وتقوية النعرة القومية والتزعنة العرقية الانفصالية ، والاتخاذ من التراث التاريخي والحضاري القديم كأساس للتفرقة ، وتفضيل حضارة على حضارة ، والإيحاء بالشعور بالأفضليّة العرقية لكل شعب على الآخر . وهكذا أثار الاستشراق بتركيزه على تاريخ ، وحضارات الشعوب الإسلامية قبل الإسلام النزعات القومية ، وأثار العصبيّات بين العرب من ناحية والشعوب الإسلامية من ناحية أخرى ، وأبرزها إثارة العصبية بين العرب والفرس والترك ، والتجاهج في عزل هذه الجماعات من بعضها البعض ، وإخراجها من دائرة الرابطة الإسلامية

التي ربطتها قديماً إلى دائرة الرابطة القومية التي عزلتها حديثاً عن بعضها البعض وجعلتها تتخذ مواقف معادية على المستوى الإقليمي والدولي ، كما يظهر في العديد من المشاكل السياسية والصراعات الإقليمية والمحروب العالمية التي اتّخذت فيها الشعوب الإسلامية مواقف متضادة استناداً إلى مصالح قومية خالصة .

وقد اتجه المستشركون المتخصصون في التاريخ الحديث للشعوب العربية والإسلامية إلى عزل تواریخ هذه الشعوب عن التاريخ الإسلامي ، ومعالجة تاريخ كل شعب عربي وإسلامي داخل إطار قومي عرقي ، وقد كونوا في هذا نظريات قومية أشاعوها بين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية ، تؤكد على الجوانب القومية ، وترفع من شأنها ، وتطالب بيعتها من جديد ، وقد لجأوا في ذلك في عدة بلاد عربية وإسلامية . ومن هذا بعثهم للفرعونية في مصر ، والبربرية في الشمال الأفريقي ، والفينيقية في لبنان وسوريا ، والكتعانية في فلسطين ولبنان ، والآشورية في العراق ، والفارسية في إيران ، والقومية التركية في تركيا ... إلخ . ولم يتوقف دور الاستشراق في بعث كل هذه المركبات والنظريات القومية بل أثار التزعنة القومية داخل كل بلد إسلامي على حدة وذلك بإثارة العصبيات القبلية والروابط العرقية . كما اهتم الاستشراق بدراسة الأقليات داخل كل بلد عربي وإسلامي لتنمية التزعنة الانفصالية لدى أهلها ، وتحريكها إلى المطالبة بالاستقلال وبالحكم الذاتي ، أو غير ذلك من أشكال الحكم التي تحقق فيها لنفسها انفصالاً عن الأمة وانعزالاً عن بقية أبناء المجتمع الإسلامي ^(١٨) . ويدرك في هذا المخصوص دور

الاستشراق التصرياني في إثارة القومية لدى بعض الجماعات النصرانية في العالم العربي مثل الأقباط في مصر ، والوارنة في لبنان ، ودور الاستشراق اليهودي في بعث القومية اليهودية الصهيونية لدى يهود العالم العربي والإسلامي ، وعزلهم عن مجتمعاتهم الإسلامية وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين ، والنجاح في إقامة الكيان اليهودي الصهيوني في أرض فلسطين العربية الإسلامية . وداخل هذا الإطار القومى ثارت مشكلة الأكراد في تركيا والعراق وسوريا ، والجماعات الشيعية في العراق ولبنان ولبلدان الخليج العربي ، وفي بعض المناطق الأخرى مثل أفغانستان .

ويضاف إلى هذا كله دور الاستشراق الشيوعي في نشر الفكر الشيوعي باشكاله المختلفة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وفرض نظام سياسي اقتصادي بعيد عن الفكر الإسلامي ومنافق له يتراوح بين الماركسية والاشراكية . كما سعى الاستشراق الغربي إلى جذب العديد من البلاد الإسلامية إلى النظام الغربي الرأسمالي بآلياته السياسية والاقتصادية ، فضلاً عن نقل فكر هذه الدول الشيوعية والرأسمالية وثقافتها وأساليب حياتها إلى مجتمعاتنا الإسلامية ، مما أدى إلى تفكك هذه المجتمعات ، وفقدانها لروح دتها السياسية والاقتصادية ، وتغيير المبادئ في بلدان العالم الإسلامي بما يتفق والنظام المستورد . وهكذا تنوعت النظم المستوردة واختفى النظام الإسلامي من حياة المجتمعات الإسلامية بعد سيادة الفكر القومي ، الذي يؤكد على

الاختلاف ، وي بعض عليه ، و يوصل له بالعودة إلى فترات التاريخ القديم قبل ظهور الإسلام ، والنظر في حياة هذه الشعوب وأساليب حياتها قبل دخولها في الإسلام ، أو من خلال ربطها بنظم حديقة أجنبية ، وإسقاط العامل الديني الإسلامي الذي ربط هذه الشعوب ، وجعل منها أمة واحدة .

٣ - إسقاط الخلافة العثمانية :

مثلت الخلافة العثمانية منذ بدايتها وحتى سقوطها وحدة المسلمين كأمة من ناحية، واستمراربة نظام الخلافة الإسلامي من ناحية أخرى . ورغم ضعف الخلافة العثمانية في أواخر أيامها إلى الحد الذي سميت فيه « الرجل المريض » فقد كانت رمزاً لهذه الوحدة ، ورمزاً للخلافة التي بدأت منذ الخلافة الرشيدة ولم تتحقق حتى سقوط الخلافة العثمانية . وقد تعددت أسباب ضعف الخلافة العثمانية ، وتراوحت ما بين أسباب داخلية تختص بتحلل الخلافة من الداخل ، وأسباب خارجية من أهمها تكالب الدول الغربية الاستعمارية على الخلافة ، وبذلها كل الجهد السياسية والعسكرية لإسقاطها والتخلص منها كرمز لوحدة المسلمين ولنظام الخلافة فيهم . ولسنا هنا في مقام الحديث عن أسباب سقوط الخلافة العثمانية ولكن نرحب فقط في تحديد دور الاستشراق في تحقيق هذه المهمة وهو دور بلا شك عظيم وخطير .

لقد اهتم الاستشراق اهتماماً كبيراً بالنظام السياسي في الإسلام ، وكان موضوع الخلافة من أهم الموضوعات التي أولاها الاستشراق

الاهتمام العلمي والسياسي . وقد علم المستشرقون أن تشويه صورة الخلافة في الماضي وضريها في الحاضر يعد عاملًا أساساً في محاربة الإسلام الذي تمكن من خلال الخلافة في عصور قوتها من إرسال الفتوحات الإسلامية إلى البلاد النصرانية ، ومواجهة الجيوش الصليبية ، ومحاربة الاستعمار الحديث منذ القرن الثامن عشر الميلادي . ويدرك للخلافة العثمانية أنها لم تكن مجرد رمز فقط للخلافة الإسلامية ، ولكنها قامت بالفتحات الإسلامية ولأول مرة في قلب القارة الأوروبية . وهو خطير عظيم لم ير به الغرب من قبل في تاريخ علاقته بال المسلمين . لقد ظلت الخلافة في العثمانيين أكثر من خمسة قرون ، وصلوا فيها بفتحوا هم إلى أبواب فيينا ، وأصبحت الخلافة العثمانية تمثل من وجهة نظر الغرب الأوروبي خطراً دينياً وسياسياً على القارة الأوروبية : حيث امتدت أسلان الخلافة داخل القارة الأوروبية ، وانتشر الدين الإسلامي على يد العثمانيين في العديد من البلاد الأوروبية الشرقية ، وأصبحت المواجهة الإسلامية العثمانية للعالم الغربي المسيحي مواجهة مباشرة وعلى الأرض الأوروبية ذاتها ، وقد كان صراع المسلمين مع المسيحيين في معظمها قبل ذلك التاريخ خارج القارة الأوروبية .

وفي ظل هذه المواجهة بدأ الغرب الأوروبي يضع خططه لوقف المد الإسلامي ، ومنع الإسلام من الانتشار في بقية القارة الأوروبية ، وهي المشكلة التي أطلقوا عليها اصطلاحاً اسم « المشكلة الشرقية » أو « المسألة الشرقية » .

ومن أول أسلحة المواجهة الأوروبية مع الخلافة العثمانية دفع المستشرقين إلى التخصص في الدراسات العثمانية ، بهدف تحليل أوضاع الخلافة العثمانية في الداخل ومعرفة أحوالها في البلاد الأوروبية التي وقعت تحت سيادتها ، ومعرفة تأثيرها في البلاد الأوروبية الواقعة على حدود الخلافة العثمانية . وقد بدأ المستشرقون في بذل الجهد العلمية المضنية في تغطية الأوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، والاجتماعية لبلاد الخلافة العثمانية للتعرف على مواطن الضعف فيها والبحث عن سبل تقويض الخلافة من الداخل ، وإثارة التزعزعات القومية عند الشعوب الخاضعة لها ، واستقطاب الشعوب العربية والإسلامية ضدها ، والعمل على تفريب المجتمع التركي من الداخل ، إلى أن نجح الاستشراق في التمهيد لوضع نهاية سياسية للخلافة العثمانية من خلال الدراسات المجتمعية التي قدمها الاستشراق لدوله الغربية ، والتي استخدمها استخداماً جيداً في تحقيق إضعاف الخلافة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وأيضاً في إيجاز مهمة تفريب المجتمع التركي ، وإبعاده تدريجياً عن الإسلام . والحقيقة أن عملية الإضعاف السياسي والاقتصادي ، تزامنت مع عملية التفريب حتى غدا المجتمع التركي مجتمعًا متديناً إلى الغرب بعد أن هجر سباسته الإسلامية وتبين علمانية أوربية انعزل بها عن دينه ، وارتقى في أحضان الثقافة والنظم الغربية . ويستوطن الخلافة العثمانية كانت خسارة المسلمين عظيمة : فقد أدى غياب الخلافة في الواقع السياسي للأمة

الإسلامية إلى غياب الدولة التي تجمع شمل المسلمين في وحدة قائمة على أساس من العقيدة^{١٩٦}.

وقد استقطبت الدراسات العثمانية جل المدارس الاستشرافية في الغرب ، فقد اهتم بها الاستشراق النصراني باعتبارها خطراً مهدداً للنصرانية في أوروبا القارة المسيحية . وقد كانت أوروبا معلق النصرانية والمدافع عنها ، بل والمهاجم باسمها في حملات صليبية وغيرها لنصرة النصرانية وفرض السيادة الدينية والسياسية على الشعوب الإسلامية ، كما ظهر هذا بوضوح في الحروب الصليبية وفي الحملات الاستعمارية الحديثة على العالم الإسلامي ، خاصة بعد الضعف الذي أصاب الخلافة العثمانية وتقسيم الغرب لأملاكها ، وبداية مرحلة استعمارية جديدة بسبب غياب الخلافة العثمانية الحامية للشرق والمدافعة عنه .

واهتم الاستشراق اليهودي كذلك بالدراسات العثمانية حيث استوطن عدد كبير من اليهود المطرودين من الأندلس في تركيا ويدأوا يخدمون الدول الأوروبية في إضعاف الخلافة العثمانية من الداخل. وقد ظهرت قوة الدور اليهودي في إستطاع السلطان عبد الحميد ، وفي الإيقاع بين العرب والأتراك وفي نشر العلمانية في تركيا^{١٩٧}. كما يظهر دور اليهود أيضاً في استغلال ظروف ضعف الخلافة العثمانية في التمهيد لإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين . وقد كانت الخلافة العثمانية عقبة وسداً منيعاً أمام كل المحاولات الصهيونية لتحقيق هذا الهدف ،

كما وقفت أمام كل محاولات تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين . كما اهتم الاستشراق الشيوعي اهتماماً عظيماً بالدراسات العثمانية ، ويقتد الاهتمام بهذه الدراسات إلى فترات قديمة سابقة على ظهور الأيديولوجية الشيوعية . فقد نشط الاستشراق الروسي منذ أن انضمت عدة بلاد أوربية شرقية إلى الخلافة العثمانية . ويمكن أن تعد الأعمال الاستشرافية الروسية خلال هذه الفترة أعمالاً استشرافية نصرانية تحمل نفس أهداف الاستشراق الغربي النصراني ، وتسعى إلى تحليل أوضاع الخلافة في مقرها الأساسي ، وفي المناطق التي خضعت لها من أوروبا ، بل وفي العالم العربي والإسلامي ، وتعمل على مساعدة الساسة في أوروبا على إضعاف الخلافة وتقويتها ، والعمل على انهيارها . وبعد ظهور الشيوعية اتجه الاستشراق الشيوعي إلى الدراسات العثمانية التي يرز فيها بحكم العلاقات التي نشأت لعدة قرون بين بلاد أوربية شرقية والخلافة العثمانية ، وبحكم التأثيرات العثمانية الثقافية في القارة الأوروبية ، وأيضاً بسبب العداء المستحكم بين البلاد الروسية والخلافة العثمانية التي انتزعت السيادة من الروس في العديد من المناطق ، ونشرت الإسلام في كثير من الولايات التابعة لروسيا ، والتي تشا عنها في التاريخ المعاصر بعد سقوط الشيوعية عدة دول إسلامية مستقلة هي جمهوريات قازاقستان ، وأوزبكستان ، وطاجيكستان ، وتركمانستان ، وقرغيزيا ، وأذربيجان .

٤ - تجزئة الأمة الإسلامية :

بالقضاء على الخلافة العثمانية " رمز إقامة شرع الله وجمع شمل المسلمين "٢١" تحت راية الإسلام ، بدأت عملية تجزئة الأمة الإسلامية إلى عدة أمم وشعوب تجتمع بعضها مصالح قومية ، وتجمع البعض الآخر عرقيات وأنساب ، ويجتمع بعضها على مذاهب وأيديولوجيات ، وتفرقت الأمة الإسلامية شيئاً ، وانحصر دور الدين في جمع المسلمين على هدف واحد ، وانتصرت القوميات والشعوبيات واختلاف الأجناس والألوان واللغات ، وهي كلها عناصر لم يحتج الإسلام في تذريتها والقضاء عليها وإقامة أمة إسلامية واحدة على أساس من وحدة العقيدة .

ولم يتوقف دور الاستشراق عند حد العمل على تجزئة الأمة الإسلامية ولكنه عمل على إبعاد الشعوب الإسلامية - التي استقلت عن الخلافة العثمانية وأصبحت تابعة للاستعمار الغربي - عن التوحد دينياً عن طريق نشر الحضارة الغربية فيها وتحويلها بالتدريج إلى النظم الغربية في السياسة والاقتصاد والتعليم ، واستبدل قيمها الاجتماعية الإسلامية بقيم غربية . وكانت تركيا ذاتها من أول البلاد الإسلامية التي توجهت إلى الغرب متبنية نظمه وهاجرة للنظم الإسلامية التي سارت عليها عبر قرون الخلافة ، واستسلمت تماماً لعملية فصل الدين عن الدولة ، وتحولت إلى بلد علماني خالص ، وسرعان ما أصاب هذا المد العلماني معظم بلاد المسلمين منذ سقوط الخلافة العثمانية وإلى وقتنا الحالي . وقد نتج عن هذا التبني للفكر العلماني في مجال السياسة أن افترقت مصلحة

الأمة الإسلامية إلى عدة مصالح سياسية متضاربة، وتوزعت البلاد الإسلامية بين عدة معاور سياسية ، ولم تعد تربطها رابطة، ودخل بعضها في حروب ضد بعض بسبب اختلاف الاتساعات السياسية ، وتضارب المصالح القومية ، وظهور العديد من المعاور الإقليمية التي استقطبت العديد من البلاد العربية والإسلامية وأبعدتها عن مصلحتها الإسلامية الأساسية. وقد ظل هذا حال الشعوب الإسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية التي وحدت المسلمين سياسياً ، وأصبح المسلمون بعدها بدون رابطة تجمعهم وتوحد صفوفهم في وجه أعدائهم ، فأصبحوا لقمة سائفة للاستعمار الذي سرعان ما تقاسم أملاك الخلافة الساقطة واستغمرها وأخضعها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لعدة معاور متناقضة إمعاناً في التجزئة ، وبعد انحسار الاستعمار وجدت الشعوب الإسلامية نفسها مرتبطة ثقانياً وفكرياً بعدة ثقافات متناقضة وسياسات متباعدة . ولم تتمكن حتى الآن من العودة إلى نظامها الإسلامي الأساسى الذى كان سبب عظمتها ورفعتها فى الماضى والذى بدونه لن تقوم لها قائمة .

٥ - نشر النظم السياسية الغربية فى المجتمعات الإسلامية :

قدم الاستشراق العديد من الدراسات الناقدة للنظام السياسى الإسلامى ، وكان الهدف الأساسى لهذه الدراسات تشويه النظام السياسى الإسلامى ، وإثارة الشبهات حوله ، ومحاولات إظهاره فى صورة النظام المتخلف العاجز عن مواجهة قضايا العالم الحديث ، وتقديم البديل

الغربي لهذا النظام الإسلامي ، وذلك باظهار أفضلية النظام السياسي النسبي و المناسبة للعالم الحديث ، و محاولة فرض هذا النظام على الشعوب الإسلامية بعد إسقاط الخلافة العثمانية .

ويلاحظ أن النقد الاستشرافي للنظام السياسي في الإسلام منطلق من وجهة نظر غربية خالصة ترحب في سيادة النظام الغربي في العالم . وهو نقد خالٍ من الموضوعية العلمية ، ويعانى من عدة أخطاء منهجية من أهمها تفسير النظام السياسي في الإسلام في ضوء خلفية استشرافية سياسية غربية لا تصلح للحكم على نظام سياسي تابع لحضارة مختلفة ، و صادر عن دين معين هو الإسلام ، في الوقت الذي لا يرتبط فيه النظام الغربي بمصادر دينية : فهو نظام وضعى تم تطويره في ظل الفصل التام بين الدين والدولة ، وعدم الاعتراف بالدين كمصدر للفكر السياسي ، الأمر الذى أدى إلى غياب الرقيب الدينى والأخلاقي على العمل السياسى ، واتجاه السياسة في الغرب إلى تحقيق المصلحة القومية على حساب الدين والأخلاق ، واعتبار الفانية النهاية مبررة لكل الوسائل المتعددة في سبيل تحقيق هذه المصلحة .

وفي ضوء هذه الخلفية السياسية الغربية يخطئ المستشرقون حين يحكمون على السياسة في الإسلام من وجهة نظر غربية واستناداً إلى مبادئ مرفوضة إسلامياً ، ومن أهمها مبدأ فصل الدين عن الدولة^(٢٢) . والحكم على نجاح النظام الإسلامي أو فشله يجب أن يتم من داخل النظام السياسي في الإسلام ، وفي ضوء تطوره ومسيرته في التاريخ

الإسلامي ، وفي ضوء مدى قرينه أو بعده من مصادره الدينية الأساسية ، وأيضاً في ضوء مدى التزامه بالدين والأخلاق عند المسلمين .

وقد تأثر المستشرقون بفكرة الديموقراطية الغربية واعتبروها المقياس الناقد والمعيار الذي ت النقد في ضوئه كل النظم السياسية الأخرى ومن بينها النظام الإسلامي . وهنا يظهر خطأ استشرافي آخر في عملية المفاضلة بين الديموقراطية الغربية ونظام الشورى في الإسلام ، وتفضيل الديموقراطية على الشورى^(٢٣) . والمفاضلة بين النظائرتين وترجيح الديموقراطية عملية لا تخضع لمقاييس نقدية موضوعية ولا تأخذ في الاعتبار مسيرة كل من الشورى والديمقراطية في التاريخ ، وإنما هي تنطلق من مبدأ السيادة الغربية ، والرغبة في نشر قيم الغرب في مجال السياسة والحكم دون النظر في إيجابيات نظم الحكم الأخرى وبخاصة نظام الحكم في الإسلام . وينطلق الاستشراف في نقده للحكم في الإسلام من الشبهة العامة التي تقول بأن الإسلام لا يملك فكراً سياسياً ، وأن النظرية السياسية في الإسلام ليست أصلية وإنما مأخوذة من نظم أخرى أجنبية . والهدف من إثارة هذه الشبهة العامة تشويه الدين الإسلامي ، ونسبة ما تشا عنه من نظم ونظريات إلى أديان وحضارات أخرى ، ورد منجزات الإسلام في مجال السياسة والحكم إلى مصادر أجنبية . وهذه الشبهة العامة لا تتفق مع واقع الحال في الدين الإسلامي الذي طور نظاماً للحكم ليس مسبوقاً وهو نظام الخلافة ، وهي شبهة تتناقض ومسيرة التاريخ الإسلامي الذي اعتمد الخلافة كنظام للحكم استمر منذ

بداية الخلافة الراشدة وحتى سقوط الخلافة العثمانية . فهي تمثل أطول نظام للحكم في تاريخ العالم ، وقد ظل نظاما فعالا وقويا ، ولم توضع له نهاية إلا على يد الغرب الذي تأمر لاسقاطه ولم ينجح في ذلك إلا مؤخراً بعد أن أصاب الوهن والضعف الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث .

وفي ظل الخلافة أقام المسلمون دولة ساست أمور الدين والدنيا بنجاح منقطع النظير . وهي دولة اختلفت في مبناتها عن كل الدول التي سبقتها كما اختلفت عن النظام السياسي الغربي ونظام الدولة الذي تخض عنه . ومن أهم ما ميز الدولة الإسلامية عن غيرها في الشرق والغرب قيامها على وحدة المقيدة في الوقت الذي ركزت فيه النظريات السياسية الأخرى على وحدة الشعب ، أو وحدة الإقليم ، أو وحدة العرق ، أو الوحدة القومية بشكل عام . ولقد لم تحت النظرية السياسية في الإسلام في جعل الكتاب والسنّة مرجعا للحكم ، وقضت على كل الفوارق الإنسانية التي تفاخر بها البشر على بعضهم البعض من عناصر قومية أو شعوبية أو لونية أو لسانية ^(٢٤) . وكانت وظيفة الخلافة " حراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا الدين" ^(٢٥) ، ولم تكون حراسة لقومية ، أو شعوبية ، أو مصلحة إقليمية أو غير ذلك من المصالح التي حرصت عليها نظم الحكم الأخرى . ومن فضائل النظرية السياسية في الإسلام المرازة بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا ، والمحرص على تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والدين والتوفيق بين متطلبات الإنسان الروحية

والمادية . ومن فضائلها أيضًا الاستناد إلى القاعدة الأخلاقية في الحكم؛ إذ ترکز النظرية السياسية في الإسلام على تحقيق الأعمال السياسية النافعة والمزودة إلى تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والدين ، وجعلت من الدين والأخلاق رقيبًا على العمل السياسي . والسيادة في الحكم تتبع من ارتباط الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيقه لها . بينما تركت السيادة في الغرب إما في يد الشعب باسم الديموقراطية ، أو بيد الحاكم أو رئيس الدولة باسم الدكتاتورية ، وكلاهما يسهل وقوعه في الخطأ لارتباطه بمقاييس دنيوية وضعفية ولا جهادات إنسانية تحتمل الصواب والخطأ . كما هو واقع وملاحظ في أمر الديموقراطية والدكتatorية في تاريخ العالم قديماً وحديثاً .

الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية للفكر الاستشرافي في المجتمع الإسلامي

للاستشراف أهدافه الاجتماعية الواضحة والتي من أجلها وجد المستشرقون جانبا لا يأس به من بحوثهم لدراسة المجتمعات الإسلامية ، والتعرف على أوضاعها المختلفة، ووضع الخطط لإحداث التغييرات الاجتماعية من خلال معرفة علمية واعية بطبيعة المجتمعات الإسلامية الحديثة من حيث بنيتها ، ومواطن الضعف فيها بغية تغيير المجتمع الإسلامي ، وتحريمه بالتدريج إلى مجتمع غربي يأخذ بالنظم الاجتماعية الغربية ، ويتبنى قيم الغرب الاجتماعية .

لقد تركزت جهود الأعمال الاستشرافية في المجال الاجتماعي حول وضع الخطط الساعية إلى عزل الإنسان المسلم عن مجتمعه الإسلامي ، وإبعاده عن عاداته وتقاليده الاجتماعية الإسلامية ، ووضع أسس اجتماعية جديدة للحياة الإسلامية . وكما هي العادة في الكتابات الاستشرافية تبدأ عملية تغيير المجتمع الإسلامي من خلال توجيه السهام الاستشرافية إلى النظام الاجتماعي في الإسلام ، فتعمل على تشكيك المسلمين في نظمهم الاجتماعية ، وإثارة الشبهات حول القيم الاجتماعية في الإسلام ، وتشويه صورة المجتمع المسلم ، ثم تقديم المجتمع الغربي في صورة مثالبة نمذجية لا تتفق مع الواقع الاجتماعي للحياة الغربية ،

وعن طريق المقالة في تصوير محاسن المجتمع الغربي ، وأفضليته على المجتمع الشرقي عامة والمسلم خاصة ، وتصوير المجتمع الشرقي بكل أشكال التخلف والجمود ، ورد هذا التخلف والجمود إلى قيم الإسلام الشابهة الجامدة غير المتغيرة من وجهة نظر الاستشراق^(٣٦) ، وفي نفس الوقت تجريد الحريات الغربية واعتبارها أساساً للتقدم في الغرب ، والتعتيم على مساوى الحياة الاجتماعية في الغرب : حيث إن وسائل الإعلام في الغرب تقدم الغرب لأبناء الشرق في صورة خيالية مزوجة خالية من مساوى المجتمع ومظالمه المتعددة ومفاسده لإحداث الانبهار الضروري لدى الإنسان المسلم وذلك لجذبه إلى الحياة الغربية والعمل على إبعاده عن قيم المجتمع المسلم ، ودفعه إلى تبني قيم المجتمع الغربي .

وقد أثرت هذه الصورة المعطاة للحياة الغربية وللمجتمع الغربي في عقول ووجدان العديد من المسلمين الذين وقعوا تحت التأثير الاستشارقي والفكر الغربي الوافد . وبدأت عملية التخطيط لإقامة مجتمعات إسلامية تقوم على أساس من الفكر الغربي ومبادئ الحضارة الغربية وأسس المجتمع الغربي . ونظراً لاختلاف الفكر الغربي وتعدد الجماعات الاستشرافية فقد جاءت التأثيرات الاجتماعية في حياة المسلمين متباينة ومتغيرة بشكل هدد الحياة الإسلامية ووحدتها تهديداً عظيماً . فقد انقسمت المجتمعات الإسلامية في العصر الحالي إلى نوعين متناقضين من المجتمعات : الأول تبني قيم المجتمع الغربي الرأسمالي ، أو تلك التي المجذب إلى النظام الرأسمالي وأخذت بقيميه الاجتماعية والاقتصادية . والنوع الثاني من المجتمعات الإسلامية وقع تحت تأثير

الشيوعية وانتهى إلى الأخذ بنظم الشيوعية في المجال الاقتصادي . الأمر الذي أدى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تناسب والقيم الشيوعية . ويضاف إلى هذين النوعين مجتمعات إسلامية اختلطت فيها القسم والمذاهب الاجتماعية ، فتم خلق مجتمعات لاهوية لها ، فلا هي غربية ولا هي شرقية ، ولا هي احتفظت بقيم المجتمع الإسلامي .

ويجب أن نذكر أن المستشرقين توزعوا بطبيعة الحال بين النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي . وسعى كل فريق إلى كسب المجتمعات الإسلامية إلى نظامه عن طريق الدراسة العلمية للأوضاع الاجتماعية في البلاد الإسلامية ، ووضع الخطط العلمية المؤدية إلى تغيير البنية الاجتماعية وفقاً للرؤية الاستشرافية الغربية الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية . وقد استفاد الساسة في الغرب من هذه التحليلات الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية والتي مكنتهـم من فهم المجتمع الإسلامي ، والتعرف على أوضاعه ومشاكله ، ووضع الخطط لتنفيذ حسب المصالح السياسية والرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد الأوروبية المختلفة .

وما لا شك فيه أن وقوع البلاد الإسلامية تحت الاستعمار الأوروبي لفترـة طـويلـة من الزـمن قد مـكـنـ الاستـعمـارـ من إـحدـاثـ التـغـيـيرـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ المـطـلـوـيـةـ ، وـتـنـفـيـذـ الـخـطـطـ الـاسـتـشـرـاقـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـخـصـوصـ .ـ فـأـقـيمـتـ مجـتمـعـاتـ إـسـلـامـيـةـ تـابـعـةـ لـمـجـتمـعـ الـسـتـعمـارـ وـهـضـارـتـهـ وـثـقـافـتـهـ وـعـادـاتـهـ وـتـقـالـيدـ وـقـيـمـهـ .ـ وـقـدـ قـامـ الـمـسـتـشـرـقـ بـدـورـينـ فـيـ هـذـاـ الـعـمـلـ التـغـيـيرـيـ :ـ الدـورـ الـأـولـ هـوـ دـورـ التـخـطـيطـ الـفـكـرـيـ لـعـمـلـيـةـ التـغـيـيرـ .ـ

والدور الثاني دور تنفيذى ساهم فيه المستشرقون الذين عملوا مع المستعمر كخبراء ، أو قادة عسكريين ، أو ساسة فجمعوا بين الاهتمامات والدراسات العلمية للمجتمعات الإسلامية وبين تنفيذ الخطط الموضوعة لتغيير المجتمعات الإسلامية .

١ - الخلية الاجتماعية للمستشرقين وأثرها في فهم النظام الاجتماعي في الإسلام :

يندرج الفكر الاجتماعي عند المستشرقين فيما يخص المجتمعات الإسلامية تحت نوعين من الدوافع : الأول دافع سيادى مرتب بالرغبة فى نشر الثقافة الفرنسية للمستشرق ، وبالتالي تغيير المجتمعات الإسلامية ، وتحويلها بالتدريج إلى مجتمعات تتبنى قيم المجتمع الغربى وثقافته . أما الدافع الثانى المحرك للدراسات الاجتماعية الاستشراقية فهو دافع فكرى مرتب بالخلفية الثقافية للمستشرق والتى تدفعه إلى رؤية المجتمعات الإسلامية من زاوية غربية خالصة ، وإسقاط الرؤى الاجتماعية السائدة في الغرب على فهم ودراسة المجتمع المسلم .

وتأثير الخلية الاجتماعية للمستشرق عظيم في رؤيته للمجتمع المسلم . خاصة وأن عدداً كبيراً من المستشرقين درسوا المجتمع الإسلامي دون أن يقوموا بزيارته ، والحياة بين أهله ، والتعرف - على الطبيعة - على قيمه وعاداته وتقاليده ، فلأت دراساتهم قاصرة ونظرية وخالية في معظم الأحوال ، وغير مسايرة لواقع المجتمعات الإسلامية . فالعديد من الصور الاجتماعية التي قدمها الاستشراق للمجتمع الإسلامي مأخوذة

من مصادر قديمة ولعصور زمنية ماضية ، كثیر منها متأثر برؤى غير علمية مستمدۃ من مصادر أدبية وحكایات شعبية لا تعطی صورة صحيحة للمجتمع المسلم في زمانها . وهناك مستشرقون عاشوا لفترة زمنية في أحد المجتمعات الإسلامية وحاولوا تصویر المجتمع كما رأوه ، ولكنهم فشلوا في ذلك لأسباب عديدة ، منها عدم التعمق في فهم المجتمع لصعوبة ذلك بسبب المواجه النفسي واللغوية وعدم القدرة على الوصول إلى روح المجتمع المسلم ، فأتت دراساتهم سطحية تعالج موضوعات ظاهرية دون التوغل في فهم المجتمع . وعزل بعض المستشرقين في دراساتهم الاجتماعية فصل المجتمع عن الدين وحاولوا فهمه من خلال رؤية غربية تفصل الديني عن الدين فأتت أعمالهم وكأنها وصف غرس لمجتمع إسلامي تحمل طابع التزيف والتحريف لطبيعة المجتمع المسلم . وبالإضافة إلى فرض الرؤية الاجتماعية الغربية أصيّب بعض المستشرقين بداء التتعصب الفكري والاجتماعي فلم يجدوا في المجتمع المسلم إلا السلبيات من وجهة نظرهم فأبرزاها وقدموا المجتمع المسلم من خلالها ، وهو من باب التشويه المفروض المتاثر بأحقاد نفسية تجاه المجتمع المدروس تظاهر في أسوأ صورة ممكنة وتغنى عنه كل حسنه وفضائله^(٢٧) .

وتأتي الأحكام الاستشرافية على المجتمعات الإسلامية متاثرة بالرؤية الاجتماعية الغربية وهي رؤية مخالفة للرؤية الإسلامية من حيث أنها تنظر إلى المجتمع مستقلاً عن الدين ، كما أن علاقاتها بالأخلاق علاقة نسبية متاثرة باختلاف المدارس الغربية حول مفهوم الأخلاق ودوره

في البناء الاجتماعي في حين أن النظام الاجتماعي في الإسلام نظام نابع من الدين ومتلزم بالأخلاقيات الاجتماعية التي يقرها الدين نفسه . فالأسرة مثلاً كوحدة اجتماعية تقوم في الإسلام على أسس دينية وأخلاقية، وكذلك المبادئ المترددة في العلاقات الأسرية وفي العلاقات الاجتماعية العامة مرتبطة بالدين والأخلاق تستمد منها القيم الاجتماعية المنظمة للحياة الإنسانية في المجتمع .

ويتأثر المستشرق أيضًا بمفهوم الحرية الاجتماعية السائد في الغرب والمنفصل عن الدين والأخلاق ، والمرتبط بقيم وضمية نسبية لا تمنع من وقوع الضرر بالأخرين وهو القيد الاجتماعي الوحيد لهذه الحرية الاجتماعية التي أدت إلى تدمير العلاقات الإنسانية في المجتمع الفرنسي^{١٢٨} وقوامت نظام الأسرة وأحالته إلى نظام اجتماعي بالـ، وأخصمه لفهم الحرية فاختلطت القيم داخل الأسرة ، وهجر الأباء أسرهم في سن التكوان ، أو عاشوا داخل هذه الأسر يمارسون حرية لهم المطلقة دون قيود ودون اعتراف بسلطة للأب والأم .

في ظل هذه المخلفية الاجتماعية درس المستشرقون المجتمعات الإسلامية ، وكونوا رؤية استشرافية غريبة عنها ، وتصوروا إمكانية سيادة النموذج الاجتماعي الغربي وفرضه فرضًا على المسلمين . ويعتبر المجال الاجتماعي من أخطر المجالات التي اشتغل بها المستشرقون هادفين إلى تغيير المجتمعات الإسلامية من الداخل ، وقد مكّنهم الاستعمار الفرنسي للعالم الإسلامي من إحداث التأثير الاجتماعي المطلوب ، وهو تأثير سلبي خطير شوه المجتمعات الإسلامية، وأبعدها

عن شكلها الاجتماعي الإسلامي وجعلها تابعة وخاضعة لنماذج اجتماعية غربية ولقيم وعادات وتقاليد مستوردة .

٢ - الآثار الاجتماعية السلبية للفكر الاستشرافي :

لقد نتج عن الفكر الاستشرافي في المجال الاجتماعي عدة تأثيرات سلبية كان لها دورها في تغيير صورة المجتمع المسلم في العصر الحديث.

أ- تغريب المجتمع المسلم من خلال التأثير على قيم الأسرة المسلمة:

لقد بدأت عملية التغريب بالفقد الاستشرافي الشديد لحياة المجتمع المسلم وقيمه ، وإثارة العديد من الشبهات الاستشرافية حول الحياة الإسلامية ، واتهام الدين الإسلامي بأنه سبب تخلف المسلمين الاجتماعي في العصر الحديث ، وتقديم المجتمع الغربي كبدائل للمسلمين ، والربط بين الحياة الغربية والتقدم الاجتماعي ، واعتبار القيم الاجتماعية الإسلامية قيمًا بالية لا تصلح للعصر الحديث ، والتأكيد على ضرورة استبدالها بالقيم الاجتماعية الغربية . ونظرًا لأن الأسرة هي أساس المجتمع المسلم فقد عاالت الدراسات الاستشرافية الاجتماعية الأسرة ، وانتقدت القيم المهيمنة في العلاقات الأسرية ، وهاجمت السلطة التي يتمتع بها الأب داخل الأسرة واعتبرتها من أسباب تخلف الأسرة المسلمة، وطالبت بإطلاق الحريات داخل الأسرة ، ونادت بتحفيز القيم الاجتماعية المهيمنة في الأسرة المسلمة . والهدف الحقيقي للدراسات الاستشرافية الاجتماعية تحفيز القيم الأسرية، وتفكيك العلاقات

الأسرية، واتخاذ النموذج الفرنسى للحياة الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها . وهو نموذج خطير وضار بالمجتمع المسلم وقد أصاب المجتمع الفرنسى بالفاسد الاجتماعية والأمراض الاجتماعية التى ترتب على تدهور مكانة الأسرة فى الغرب.

ونرى ضرورة التنبئ إلى خطرة تبني هذا النموذج الأسى فى الغرب والذى ضاعت فيه القيم ، واختلطت الحقوق والواجبات استناداً إلى مبدأ الحرية الشخصية لأفراد الأسرة . وقد تسبيب هذه الحرية فى ضياع الشخصية الأسرية ، والتخلص من قيود الأسرة الذى تشتلت فى الغرب فى سلطة الأب والأم داخل الأسرة ، وتحقيق ما يسمى بالاستقلال الشخصى لعضو الأسرة داخل أسرته وحرسته فى ترك الأسرة وهجرها تحقيقاً لاستقلاليته وحرسته ، وقد انطبق هذا على الجميع ، فالأب يترك أسرته وكذلك الأم تحقيقاً لرغبات شخصية خاصة سميت بحريات شخصية ، ويترك الأبناء والبنات أسرهم فى وقت مبكر من حياتهم قبل أن يكتسبوا نمواً نفسياً واجتماعياً ، وقبل أن يتحقق كل منهم نصيحة الكامل من التربية والتعليم والأمان الاجتماعى والاقتصادى ، وقبل أن يتلقى ما يكفيه فى حياته من التعاليم الدينية الأخلاقية فى حالة تسك الأسرة أصلاً بدين من الأديان أو بنظام أخلاقي معين .

ويجب التنبئ أيضًا إلى أن من أهم مساوى هذا النموذج الأسى الفرنسى الذى يراد تصديره إلى المجتمع الإسلامى ضياع قيمة الزواج الاجتماعية كعامل أساسى فى بناء الأسرة السليمة اجتماعياً . فقد

تدهور النظام الأسري إلى الحد الذي أصبح هدف الزواج كمؤسسة اجتماعية إشباع الرغبات الجنسية للزوجين ، وعدم الاكتتراث بتكوين أسرة بالمعنى الاجتماعي المعروف : إذ يلاحظ أن كثيراً من الزيجات الحديثة في الغرب تقوم على شرط أساسي وهو عدم الإلتحاب . ويسعى عن الإخلال بهذا الشرط هجر الأسرة أو فرض الإجهاض كوسيلة للتخلص من الجنين . والحقيقة أن الزواج تدهور في الغرب إلى أن أصبح معبراً عن مجرد رغبة شخصين في الحياة معاً بدون إلتحاب ، ورها لفترة زمنية محددة تنتهي بانتهاه الدافع إلى هذا الرباط غير المقدس ألا وهو إشباع الرغبة الجنسية . وهي رغبة يمكن إشباعها بسهولة خارج إطار الأسرة مما يجعل نظام الأسرة لا قيمة له على الإطلاق حتى في مسألة الإشباع الجنسي التي يمكن تحقيقها بعيداً عن القيود الأسرية ، وما يترتب على نظام الأسرة من التزامات وواجبات وعلاقات تكاد تكون مفروضة فرضاً.

ومن الواجب الإشارة إلى أن بعض هذه القيم الغربية انتقلت إلى الأسرة المسلمة بتأثير من الفكر الاستشرافي . ونذكر على سبيل المثال التفكك الذي بدأت تعانى منه الأسرة المسلمة خاصة في مجال العلاقات الأسرية حيث تعمد بعض الأسر المسلمة إلى إطلاق الحريات للأبناء والبنات داخل الأسرة، والسماح لهم بالحريات الشخصية دون رقابة من الأب والأم . ومن بين هذه الحريات السماح لهم بالتأخر خارج المنزل ، وباختيار الأصدقاء ، والصديقات دون رقابة من الأسرة ، والاشتراك في المغفلات وغيرها من المناسبات غير الإسلامية ، والاختلاط بالجنس الآخر ، والدخول في علاقات مع الجنس الآخر ، وباختيار الأزياء غير المناسبة ،

والاعتماد على وسائل غربية في التربية وفي تنمية الأبناء، والبنات داخل الأسرة . ويظهر هذا التأثير أيضاً في علاقة الأب بالأم في حياة بعض الأسر المسلمة ، حيث تدهورت سلطة الأب داخل الأسرة ، وافتقد الرجال صفة القوامة ، وسمحوا لزوجاتهم بالعمل والإتفاق على الأسرة أو المشاركة في نفقات الأسرة ، وتخلوا بذلك عن أول وأهم واجباتهم الأسرية. كما نظمت حياة الأسرة المسلمة في نفس الإطار الذي سارت عليه الأسرة الغربية؛ حيث يصر بعض الأزواج على عدم الانجاب ، وفي حالة الانجاب يتم تحديد النسل ، ويعمل الإهمال في تربية الأبناء، والبنات بسبب عمل الزوجة ومارستها الحرية في الخروج من المنزل ويدون إذن الزوج في معظم الأحوال ، وترك الأبناء، والبنات في رعاية مربية أو خادمة جاهلة أو أجنبية تترك أثراً كبيراً في حياة الأبناء، والبنات وهو أثر سلبي بكل تأكيد . وتصر بعض الأسر المسلمة على عدم الالتزام بواجبات الدين وفرضه : من ترك للصلة والصوم ، وإهمال ليقية الفروض الدينية ، وعدم الالتزام بالمبادئ الأخلاقية ، وبالتالي العجز عن تربية الأبناء تربية دينية وأخلاقية لائقة ، وتميل العديد من الأسر المسلمة إلى عدم الالتزام بالمحاجب أو بالزى الإسلامي اللائق الذى يحفظ للمرأة وقارها واحترامها وعفتها . هذه الظواهر الاجتماعية وغيرها لا شك فى أنها بدأت تنتشر في المجتمعات الإسلامية وبصورة مهددة لنظام الأسرة في الإسلام ، وهي ظواهر اجتماعية سلبية لا بد من تقويمها ومنع انتشارها بكل الوسائل الشرعية والأخلاقية الممكنة ومن خلال التوعية الإسلامية المريضة على إعادة� الاحترام والتقدير إلى الأسرة المسلمة .

ب - الهجوم الاستشراقي على المرأة المسلمة :

وامتداداً للهجوم الاستشراقي على نظام الأسرة في الإسلام ركزت الأعمال الاستشراقيّة على دراسة وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة وخارجها ، فاتهما المرأة المسلمة بأنها أسيرة الرجل وأمته لا تستطيع بأي حقوق أو حريات ، وليست لها شخصية مستقلة عن الرجل ، واتهماها في عقلها بأنها في وضع عقلي مختلف فهي جاهلة غير متعلمة ، وهي عضو عاطل داخل المجتمع المسلم طالما أنها لا تستطيع بحقوق العمل والأنشطة المتاحة للمرأة في الغرب .

ويركز النقد الاستشراقي على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة ، وتحض الدراسات الاستشراقيّة المرأة المسلمة على الشورة والتمرد على وضعها داخل المجتمع المسلم ، والمطالبة بحقوقها "الضائعة" والتشبه بالمرأة الغربية ، فتصبح عضواً كاملاً في المجتمع له حقوق الرجل وعليه واجباته . وقد تأثر بهذه الدعوة الاستشراقيّة عدد من المفكرين أمثال سالمة موسى وقاسم أمين وغيرهم من أصحاب الدعوة إلى حرية المرأة . وبدأت في الظهور شخصيات نسائية مسلمة تطالب بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق . وتكونت الحركات النسائية التي تدافع عن مبدأ المساواة تأثراً بالفكرة الاستشراقيّة التي تسعى إلى تفريب المرأة المسلمة ، ومحو شخصيتها الإسلامية ، ودفعها إلى التمسك والمطالبة بنفس وضع المرأة الغربية .

وكالعادة فالاستشراق هنا واقع تحت تأثير وضع المرأة الغربية ، ويرى أنها نموذج يجب أن يحتذى به ، وأن ما حققته من مساواة وحقوق يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقية عامة . ولذلك فالأحكام الاستشرافية الخاصة بوضع المرأة المسلمة أحكام متاثرة بالخلفية الاجتماعية للمستشرقين الذين يستقطون النظام الاجتماعي الغربي ووضع المرأة الغربية على وضع المرأة المسلمة فيطالبون بالمساواة بين الجنسين ، وبالحرية المطلقة للمرأة المسلمة ، ومنحها كل الحريات الممنوعة للمرأة الغربية دون مراعاة لاختلاف الجوهرى بين طبيعة النظام الاجتماعى فى الغرب عنه فى الشرق ، واختلاف وضع المرأة الغربية عن وضع المرأة الشرقية ومكانتها فى المجتمع الشرقي عامة والإسلامى خاصة .

وبالإضافة إلى الواقع تحت تأثير الخلفية الاجتماعية للبيئة الغربية يسعى الاستشراق إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة ، والعمل على تفكيك نظام الأسرة فى الإسلام : من خلال حرث المرأة المسلمة على التمرد على هذا النظام والخروج عليه باسم الحرية ، وتصوير وضع المرأة المسلمة تصريحًا مزيفًا لا يعكس الحقيقة ، وبأخذ بعض الظواهر الخارجوية ، ويعد مقاولة ظالمة وتمسفيّة بين وضع المرأة الغربية بحرياتها المتعددة ووضع المرأة المسلمة بقيودها المكبلة بها من وجهة النظر الاستشرافية . فيظهر للمرأة المسلمة أنها فى وضع أدنى من المرأة الغربية فتطلب بحقوق المرأة الغربية وبالمساواة بالرجل وبالحريات الأخرى التى تعتقد خطأً أنها محرومة منها . ولاشك فى أن العديد من النساء

السلمات وقعن تحت تأثير هذه المقابلات التي عقدها الاستشراق بين المرأة الغربية والسلمة. بل نجد أن التأثير قد امتد إلى الرجال المسلمين الذين يطالبون النساء بحقوق المرأة الغربية عن جهل بواقع المرأة الغربية التعيس ، وعدم تعمق وقلة فهم لطبيعة حرريات المعنوية لها ، وعدم إدراك للمفاسد الاجتماعية والأخلاقية المترتبة والتي أدت إلى حدوث عكس ما هو مطلوب ألا وهو فقدان المرأة لكرامتها وشخصيتها بسبب حرريات مشبوهة أدت إلى وقوع رذائل محمرة . وفيما يلى نبر مساري الدعوة الاستشرافية إلى تحرير المرأة السلمة من خلال مناقشة موضوعين أساسيين الأول : وضع المرأة في الإسلام ومقابلته بوضع المرأة في الغرب، وبيان محسن وضع المرأة السلمة ومسارى وضع المرأة الغربية . والثانى مناقشة قضية هامة تشير العدد من الشبهات حول وضع المرأة السلمة وهى مسألة تعدد الزوجات التي يركز عليها الاستشراق تركيزاً شديداً ، محاولين شرح الموقف الإسلامي من القعدد ، وبيان أسباب التعدد والضرورات التي تدعى إليه .

أولاً : المقابلة بين وضع المرأة السلمة والمرأة الغربية وبيان محسن وضع المرأة السلمة

يختطف الاستشراق حين ينظر إلى المرأة في الإسلام في ضوء المرأة في الغرب ، وفي ظل أوضاع غربية غير مقبولة إسلامياً . فالمرأة الغربية حرية بالمعنى الغربي للحرية، وهو معنى مرفوض في المجتمع الإسلامي؛ إذ أنه يعني خروج المرأة السلمة على المحدود الدينية والأخلاقية للمجتمع المسلم . فالحرية الغربية فرضت على المرأة أوضاعاً تتنافى مع طبيعتها

كاماً رأة . فقد فتحت المرأة بحرية ظاهرية فقدت في مقابلها حقها كأنثى في الرعاية والكافلة والقوامة ، ونالت استقلالها عن الرجل ففقدت مكانها الطبيعي داخل الأسرة ، وفقدت الحماية الاجتماعية والاقتصادية ، والأمان الاجتماعي والنفسى والاقتصادى الذى يكفله نظام الأسرة فى مقابل حرية وهيبة واستقلال مفقود . وكل هذا قد تم للمرأة الغربية فى إطار من نظام للقيم يسمح للمرأة بالحصول على هذه الحريات دون أن يوفر لها الحماية أو يدفع عنها الأضرار الناجمة عن هذه الحريات . فالمرأة الغربية أصبحت وحيدة بدون حماية تمارس حريتها فى ظل مخاوف متعددة تكاد تطبع بكرامتها وتدفع بها إلى الهاوية بدون أسرة وبدون أبناء وبدون رعاية رسمية أو غير رسمية .

والنظرة الاستشرافية إلى المرأة المسلمة نظرة سطحية تأخذ ببعض المظاهر الخارجية لوضع المرأة دون التعمق في فهم وضع المرأة داخل إطار النظام الاجتماعي ، وينبع من الشمولية التي تؤدي إلى حسن الفهم ، وبعيداً عن عملية عزل بعض الجزئيات عن المفهوم الكلى أو النظرة الكلية للمرأة في المجتمع المسلم . فالاستشرق يعزل بعض العناصر عن الرؤية الكلية ، ويحكم على وضع المرأة المسلمة من خلال هذه العناصر المعزولة مثل الحجاب ، وعدم الاختلاط ، وتعدد الزوجات ... إلى غير ذلك من المظاهر التي تبدو سلبية في إطار النظرة الجزئية السريعة المفصلة عن الرؤية الشمولية لوضع المرأة في الإسلام ، وفي مقابل ذلك تأتي النظرة الاستشرافية للمرأة الغربية في ضوء عناصر جزئية تبدو

ايجابية في شكلها المفصول عن الإطار العام والرذيلة الشمولية لوضع المرأة الغربية . والناظرتان مخطستان لقيامهما على أساس من مظاهر خارجية تأخذ بالظاهري ولا تتعمق لتحصل على فهم سليم لأوضاع المرأة المسلمة .

والحقيقة أن المرأة المسلمة تتفوق في وضعها على المرأة الغربية وعلى كل المستويات : فالمرأة تتمتع بوضع إنساني طيب وكرم في ظل الإسلام الذي كرمها في كل وظائفها في المجتمع كأم وزوجة وأخت وابنة، وقد ضمن لها الإسلام حقوقها كاملة في شؤون الزواج والطلاق والميراث ، وحستها الشريعة الإسلامية من خلال الأحكام والتشريعات التي تضمن لها حقوقها مع الرجل على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعاطفية . وهذه الحقوق محفوظة بواسطة الشريعة وليس متروكة لحرية الرجل وإرادته ^(٢٩) .

والمرأة في الإسلام إنسانة مستقلة ومسئولة مسئولة دينية ومدنية كاملة ، وقد اعترف الإسلام لها بكرامتها الكاملة وشخصيتها المستقلة عن الرجل ، وقد قرن بينها وبين الرجل في مواضع عديدة وعاملها على نفس المستوى مع الرجل في الأمور الدينية والدنوية .

وقد عاملها الإسلام المعاملة الشرعية المستقلة كإنسان مسئول دينياً وأخلاقياً وكثيراً ما خاطبها القرآن خطاباً مباشراً دون أن يعتبرها تابعة للرجل في مسئoliاتها ، وفي الوقت الذي منحت فيه حق التملك كلفت الرجل بحمايتها ورعايتها وتحمل مسئoliتها .

وهذا ليس من باب فرض السيادة للرجل على المرأة ، ولكن اعترافاً بأمور الفطرة وما يفرضه العقل السليم في شأن المرأة بطبعيتها الضعيفة وقدراتها الجسمية المحدودة ، ومحدودية نشاطها ، والذى تفرضه ظروفها الخاصة وضرورة الحفاظ على كرامتها ، وصيانة شخصيتها داخل الأسرة والمجتمع . لقد حرص الإسلام على شرف المرأة وطهارتها وعفتها وعدم ضياع شخصيتها في ظل الرجل من خلال التنظيم الدقيق لعلاقة المرأة بالآخرين داخل الأسرة وخارجها ، وقد أوصى القرآن الكريم والحديث النبوى بكل ما يحفظ للمرأة مكانتها وقيمتها في المجتمع الإسلامي .

أما ما يدعى الغرب من حرية شخصية للمرأة فهو لا يتناسب مع طبيعة المجتمع المسلم ، ولا يصح أن تقاس أوضاع المرأة المسلمة على أساس أجنبي يعتبرها الغرب صالحة للمرأة الغربية . فال المجتمع الغربي له قيم خاصة التي سمحت للمرأة بالاختلاط بالرجل في العمل وفي الحياة عامة ، وجعلت العلاقات بين الرجل والمرأة علاقات مفتوحة تتم على أساس من الحرية الشخصية للرجل والمرأة وفي ظل نظام مفكك للأسرة يشجع على العلاقات الخاصة (٣٠) ، ويجبر المرأة على الخروج على طبيعتها والتعامل مع الرجل نداً لند دون الاعتراف بالفارق الأساسية بين طبيعة كل من الرجل والمرأة والتي اعترف بها الإسلام فتحمل الرجل مسؤولية المرأة أمّا وزوجة وأختاً وأبنته ، وجعل الرجال قوامين على النساء ، واعتبر المرأة مسؤولة عن بيتها وتربيته أولادها ، كما منحها حق العمل في الأعمال التي تناسب طبيعتها ولا تتنافى مع كرامتها . وحدد علاقة الرجل بالمرأة داخل نطاق الأسرة حفاظاً لكرامة المرأة وضماناً لحقوقها .

وحتى في حالة عمل المرأة لم يبلغ الإسلام مسؤولية القوامة على الرجل ، وهو أمر ليس له وجوب في الغرب ، فالرجل ليس مسؤولاً عن المرأة فالمرأة لها عملها والرجل له عمله ، وداخل الأسرة يتتحمل الرجل والمرأة تكاليف المعيشة وتربية الأبناء . فباعطاء حق العمل للمرأة سلب منها حقوقها المادية على الرجل، ورفع عن الرجل المسئولة المالية تجاهها.

أما القيود التي يتحدث عنها المستشرقون فهي ليست قيوداً ولكنها ضمانات للحفاظ على كرامة المرأة وسلامة المجتمع ، وسيادة الأخلاق والبعد عن المفاسد الأخلاقية والاجتماعية المدمرة للمجتمع في النهاية^(٣١) . فالحجاب وعدم الاختلاط والقيود الخاصة بطبعية عمل المرأة كلها لا تهدف إلى التقليل من حرية المرأة وحقوقها وإنما إعطاء الرجال سيادة على النساء ، كما يدعى المستشرقون ، ولكنها ضوابط أخلاقية لحماية المرأة والمجتمع . خاصة وأن الغرب - وبعض المجتمعات الإسلامية المتأثرة به - قد عرض المرأة للمعديد من المخاطر الاجتماعية بسبب حرية اللباس، والاختلاط، وإساءة استخدام المرأة في أعمال ووظائف مهينة لها ولكرامتها مما ساعد على انتشار الفساد في المجتمع من خلال السفور ، وارتداء المرأة للأزياء الخليعة المشيرة لفتنة الرجل ، وعمل المرأة في السينما والمسرح ، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة . ونشر الفساد من خلال بعض السلوكيات المرتبطة بالمرأة مثل تنظيم مسابقات الجمال وعروض الأزياء ، والمهرجانات المختلفة التي تظهر فيها المرأة في أوضاع شائنة مشيرة للغرائز ، ومن خلال استغلال المرأة في أفلام الجنس والعنف، والساحر بممارسة البغاء ، ولا يخفى ما لهذه الممارسات الدينية من تأثير مدمر على المجتمع الغربي .

أما ما يدعوه المستشرقون من وضع قيود على عمل المرأة فالمجتمع الإسلامي لم يمنع المرأة من العمل ، ولكن حدد لها المجالات التي تناسب مع طبيعتها ، ولا تعرض كرامتها للمهانة ، ولا يجعلها تختلط بالرجل الأجنبي عليها ، لما ينتجه عن ذلك كله من انتشار للرذيلة والفساد في المجتمع ، ومن تحريف المرأة وفقدان لكرامتها ، ومن تأثير سلبي على الأسرة . وقد أكد المجتمع المسلم على أن الأسرة هي ميدان المرأة وعملها الرئيسي حرصا على سلامة الأسرة وضمان التربية والتنشئة السليمة للأبناء ، وتأمين الأمان الاجتماعي والنفس للأطفال ولرتب الأسرة وللمجتمع ككل باعتبار الأسرة أساس الحياة الاجتماعية . وهي أمور انتقدتها المجتمع الغربي بسبب الإفراط في عمل المرأة وتحميلها المسؤوليات المادية ، بالإضافة إلى المسؤولية الاجتماعية . وقد أدى العمل إلى إهمال شؤون الأسرة والأطفال ، وإلقاء تبعية التربية والتنشئة على العضانات والمربيات ، وحرمان الأطفال من حنان الأمهات ، الأمر الذي أدى إلى انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ، وتفكك الأسرة وتدهور العلاقات بين أعضائها .

ثانياً : مسألة تعدد الزوجات :

ومن المسائل المتعلقة بوضع المرأة في الإسلام ، والتي أساء المستشرقون فهمها، مسألة تعدد الزوجات ، فقد اعتبروا التعدد ظهراً من مظاهر الاضطهاد الإسلامي للمرأة وتحويلها إلى أمة للرجل ، وإهانة كرامتها ، وجعلها في مرتبة تالية للرجل من حيث الأهمية والقيمة. وليس من جديد في القول بأن النظرة الاستشرافية للتعدد مبنية على

أساس من رؤية سطحية لوضع المرأة المسلمة تعزل جزئيات من وضع المرأة وتناقشها داخل إطارها المحدد ، فتبعد سلبية ، مع أن واجب الدراسة العلمية الموضوعية أن تنظر إلى الأمر في شموليته ، وداخل إطاره العام حتى يتم الفهم الصحيح لموضوع التعدد . يقع الاستشراف مرة أخرى في خطأ المقارنة بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية متجاهلاً في هذه الحالة فضائل التعدد ورذائل عدم السماح به كما هو الحال في المجتمع الغربي ، والذي هو في حقيقة الأمر مجتمع تعدد غير ملائم في التعدد الذي يمارسه بقوانين دينية أو أخلاقية . فلقد سمح للرجل بمعاشرة عشرات النساء ، ويسمح للمرأة بمعاشرة عشرات الرجال دون أن يضع ضوابط دينية أو أخلاقية لهذا النوع من التعدد السائد في الحياة الغربية والذي أدى إلى انتشار الفساد الأخلاقي وانتشار الأمراض النفسية والاجتماعية والصحية . كل هذا يعلمه المستشرق علم اليقين ويرفض مع ذلك قبول التعدد الشرعي في الإسلام والذي وضعت له شروط ، والتزامات ، وشرائع تضبطه وتتحكم فيه وتتضمن فيه الحقوق للمزوجات والأبناء . ولا يمكن الحكم على مثل هذا المستشرق إلا بالجهل لحقيقة وضع التعدد في الإسلام ، وضوابطه ، والقوانين المنظمة له ، وفضائله في منع الرذيلة والفساد ، وحل المشاكل الإنسانية ، أو الحكم عليه بالتعصب الأعمى ضد الإسلام ومجتمعه والتعصب الأعمى لمجتمعه الغربي ، وهو أعمى في هذه الحالة لأنّه يتغاضى عن التعدد الموجود في الحياة الغربية (٢٢) . وهو تعدد محرم : ففيه خروج على تعاليم الدين والشرائع والأخلاق ، فضلاً عن نتائجه الضارة للمجتمع من فساد ،

وضياع للأنساب ، وانتشار للأمراض ، وتشريد للأبناء ، وإهانة للمرأة التي ترى بعين رأسها زوجها يدخل في علاقات محرمة مع آخريات ولا تستطيع إلا أن تبادله الواقع في المعرفات بالدخول في علاقات محرمة مع رجال آخرين . وعلى كل فالرد على شبهة التعدد عند المستشرقين يمكن أن يتم من خلال مواجهته بالواقع الغربي الذي يسمح بالتعدد دون حماية شرعية ، وأيضاً من خلال توضيح المبررات التي اعتمدها الإسلام في السماح بالتعدد والشروط التي وضعها لذلك ، وتبين فضائل التعدد في ظل الأسرة وتحت ظل الشرعية ، عن التعدد الذي يمارس بشكل حيواني في الغرب ويدون حماية قانونية أو مراعاة للعلاقات الإنسانية .

أما مواجهة المستشرق بواقعه الغربي الذي يسمح بالتعدد خارج إطار الأسرة ويدون قيود دينية ، أو شرعية ، أو أخلاقية^(٣٣) فتشير في هذا المخصوص إلى أن مفهوم الحرية المطلقة في الغرب أدى إلى تطور أعراف وتقاليد اجتماعية تسمح لكل من الرجل والمرأة بالدخول في علاقات عاطفية خارج حدود الأسرة ، وخارج نظام الزواج ، ودون أن تكون هناك أية التزامات من جانب الرجل أو المرأة . وليس من هدف مثل هذه العلاقات المنحرفة سوى إشباع الرغبات الجنسية لدى الرجل والمرأة ، والتي تحولت إلى رغبات حيوانية لا ضابط لها .

ولابد من مواجهة المستشرق بأضرار هذا التعدد المسروق به خارج إطار الأسرة والزواج . ففيه أولاً إهانة لكرامة المرأة من خلال العلاقات المتعددة التي تحولها إلى سلعة تباع وتشترى ، وتلقى في سلة المهملات حين تستهلك وتؤدي غرضها . ونذكر المستشرق بالأضرار الاجتماعية

والنفسية التي تصيب المرأة والرجل في هذا الخصوص حيث يفقد كل من الرجل والمرأة صفة الانتقام الحقيقي ، وتنتفى المودة والرحمة في مثل هذه العلاقات التي لا تهدف إلى إقامة رابطة اجتماعية أو علاقة عاطفية سليمة ، ولكن تهدف إلى تحقيق إشباع النزوات والشهوات التي أصبحت نوعاً من أنواع الإدمان الذي يمارسه الإنسان بدون ضوابط ، والذي تعدى فيه حدود الإنسانية ، وتحول إلى حيوان بل إن بعض الحيوان أفضل من الإنسان في هذا الخصوص .

ومن الأضرار الأخرى الناجمة عن مثل هذا التعدد المسموح به في الغرب ضياع الرابطة الأسرية والاجتماعية التي هدف إليها الشرع من خلال الزواج . ففي مثل هذا التعدد ضياع الأنساب الاجتماعية في حالة الإلحاد حيث لا يعرف الأب في مثل هذه الأحوال ، فتضيع الحقوق ، وتفسد تربية الأبناء الذين يعتبرون في هذه الحالة لقطاء ، يتم التخلص منهم ^(٣٤) : إما من خلال الإجهاض قبل الولادة ، أو من خلال وضعهم في الملاجيء بعد ولادتهم ، وفيها يتعرض الأبناء لتربية غير سليمة اجتماعياً ونفسياً بدون رعاية من أب وأم . ويسبب هذا الوضع للمرأة إحساساً بالندم والضياع لإهمالها أداة واجباتها الأسرية ، وقد انها الانتماء العائلي ، وتصاب بالأمراض النفسية والصحية مثل الاكتئاب والأزمات النفسية . وهي من الأمراض الشائعة في الغرب .

إضافة إلى هذا ينجم عن التعدد المسموح به في الغرب انتشار المفاسد الأخلاقية والاجتماعية : حيث تختلط القيم ، ولا يستطيع الإنسان التمييز بين الحلال والحرام ، والصحيح والخطأ ، والخير والشر .

وهو اختلاط للقيم أدى في كثير من الأحيان إلى التأثير على الآخرين وغير المنحرفين من خلال اتهامهم بالتزمر والتخلف لأنهم يخرجون على الأعراف والتقاليد التي انتشرت وأصبحت السمة الأساسية للمجتمع. ومن الأخطار الاجتماعية الناجمة عن هذا التعدد انتشار المخدرات والمسكرات، وكل أشكال الإدمان ، وانتشار الجرائم الأخلاقية وبخاصة الجرائم الجنسية كالاغتصاب، والشذوذ الجنسي، والإجهاض. هذا فضلاً عن انتشار الأمراض وأهمها في الغرب - في عصرنا الحالى - الإيدز . والذي ثبّتت الأبحاث الفريدة أن من أهم أسباب العلاقات الجنسية المتعددة والشذوذ الجنسي . واعتبرت أن من أهم سبل الوقاية من هذا المرض الخبيث البعد عن العلاقات الجنسية غير الطبيعية والعودة إلى تقاليد الأسرة حماية للأزواج والزوجات والأبناء .

أما المواجهة الثانية مع المستشرق فتحتخص بتوسيع حقيقة التعدد ، والظروف التي أوجبته والشروط المرتبطة به ، والنتائج الإيجابية التي ترتبت عليه في حياة المجتمع المسلم . وهي أصول نزع عن المستشرقين على معرفة جيدة بها ، لكنهم يتجاهلونها في سبيل تحقيق هدف التشويه للإسلام والمجتمع الإسلامي . فالتعدد الذي سعى به الإسلام لم يكن لإرضا شهوات ورغبات جنسية كما هو الحال في الغرب ، ولكنه تعدد في ظل نظام الأسرة وفي ظل نظام الزواج الشرعي حسب الكتاب والسنة ، وذلك ليعطى المرأة حقوقها ، ولا تخضع المسألة لرغبة الرجل وزواجه . فالتعدد فيه زيادة في الالتزامات والأعباء وفيه حقوق للزوجات والأبناء ، ويتطبق قدرة على العطاء العاطفي والمالي ، وتحقيق الأمان الاجتماعي والاقتصادي للزوجة والأبناء في ظل أحكام الشريعة .

والتعدد الذي يرفضه المستشرق حالياً في شكله الشرعي كان موجوداً في اليهودية والنصرانية كما تدل على ذلك نصوص العهد القديم والجديد، وكان له وجوده في الشرائع السابقة . وقد أبقى عليه الإسلام بعد تهذيبه وإخضاعه للشرع ، وتحديده لضمان تحقيق أهدافه بعيداً عن الانحراف والفساد ، وحفظاً للأنفس والأنساب . ومن عناصر تهذيب التععدد الوقوف به عند عدد يكفل حاجة الرجل ووجوب العدالة في مطالب الزوجات بعيداً عن الميل والانحراف « وإن خفتم ألا تقسطوا في البترامي فانكحوا ما طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع فبأن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيديكم ذلك أدنى ألا تعولوا » « سورة النساء الآية ٣ ». ويقول سبحانه وتعالى : « وإن تستطعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالملقة وإن تصلحوا وتشقروا فإن الله كان غفوراً رحيماً » « سورة النساء الآية ١٢٩ » .

وبالإضافة إلى وجود التععدد في الشرائع الماضية وتهذيبه في الإسلام لتحديده ووجوب تحقيق العدالة بين النساء ، فهناك مقتضيات للتععدد من حيث طبيعة الجنسين : حيث يلبي التععدد طبيعة أو سنة الله في كونه . فالواقع " أن الطبيعة تسخر بالنساء أكثر مما تسخر بالرجال وتقسو على الرجال أكثر مما تقسو على النساء ، وأن الاتجاه الطبيعي للجماعات في كل العصور إلى القوة لا إلى الضعف ، وأن الرجل تطرد قوته الفاعلية إلى حياة أطول مما تستعد له قابلية المرأة ، وأن الرجل لا تمتزجه فترات يفقد فيها استعداده على نحو ما يعترى المرأة من هذه الفترات ، وكان من الرجال من تغلب عليه جنسيته لا تحصنه المرأة

الواحدة ... إذا كان هذا هو الواقع ، كان بلا شك مما يقضى بترك الشريعة كما أرادها الله ، لاتقيد إلا بما قيدها به من مراعاة العدل بين الزوجات في المحدود التي رسمها صاحب الشريعة ”^(٢٥) .

وهكذا تقضى طبيعة الجنسين وسنة الله في كونه بالتلعدد منعًا لترك الرجل والمرأة تحت ضغط الطبيعاني والسنن فيضطران إلى مقارفة الإثم مدفوعين بالطبيعة والسنن ”^(٢٦) .

وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى هذا في قوله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا »^(٢٧) . وهناك مقتضيات إنسانية أخرى جعلت التلعدد أمرًا شرعياً ومقبولاً لعلاج حالات إنسانية لا تجد لها علاجاً آخر . ومن هذه الأسباب الداعية إلى التلعدد الرغبة في الإنجاب في حالة عقم الزوجة الأولى ، وفي حالة المرض الطويل ، وعدم قدرة الزوجة على القيام بواجبات الأسرة والزوج ، وفي حالة طول فترة الدورة الشهرية ، وعدم إقبال بعض النساء على الرجال ، وقلة رغبتهن ، وعدم قدرة الرجال على التحكم في غرائزهم^(٢٨) ، وفي حالة كثرة عدد النساء في المجتمع وقلة عدد الرجال خاصة بعد المخرب .

هذه هي الحقائق الأساسية حول التلعدد الذي جعل منه الاستشراق شبهة كبيرة يستخدمها لتشويه صورة المجتمع المسلم وتشويه وضع المرأة المسلمة ، وتشويه صورة الإسلام في النهاية ، وهو بلا شك هدف استشراقي أساسى يسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . ويمكن في النهاية تحديد الأخطاء الاستشراقيات في معالجة قضايا المرأة المسلمة بعيداً عن الموضوعية والحياد العلمي المطلوب في أن

المستشرقين دأبوا على تزييف الحقائق الإسلامية ، وتقديم صورة مشبوهة للمجتمع المسلم لا تتم عن جهل بالحقيقة ، ولكن تشير إلى رغبة متعمدة في التشويه . والخطأ الاستشرافي الثاني يبدو كما قلنا في عزل بعض الحقائق حول وضع المرأة عن الرؤية الإسلامية الشاملة في هذا الشخص ، فتبعد هذه الحقائق وكأنها سلبية ومسينة لوضع المرأة ولطبيعة المجتمع المسلم . وهذا يشير إلى جزئية ثابتة في النهج الاستشرافي تؤكد عدم موضوعيته ورغبتها في التشويه ، وهي افتقطاع جزئية من صورة عامة ومعاملتها بشكل مستقل عن هذه الصورة الكلية فتظهر سلبية بالنسبة للجميع . وهذا يذكرنا بمن يقطعون جزءاً من آية قرآنية ليبدل على وجود سلبية ، أو ليبيع معهراً ، أو غير ذلك من الأمور والمثال المعروف في هذا الشخص مثال « ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فيأخذ « ولا تقربوا الصلاة » وبهمل « وأنتم سكارى » . والخطأ الاستشرافي الثالث يظهر في عقد مقارنة أو مقابلة غير مناسبة وغير منهجية بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية دون النظر إلى اختلاف البيشتين الإسلامية والغربية ، واختلاف القيم ، والأخذ بالظاهر الشكلي دون التعمق الذي يوضح الفارق بين الحالتين . مع أن المقارنة الموضوعية ستنتهي حتى لصالح وضع المرأة المسلمة . والخطأ يكمن بطبيعة الحال في إسقاط وضع المرأة الغربية على المسلمة ، وفهم وضع المرأة المسلمة من خلال رؤية وخلفية غربية خالصة .

هذا وقد أشرنا في الرد على النظرة الاستشرافية لوضع المرأة المسلمة إلى حقائق حول وضع المرأة الغربية وإلى حقائق حول قبول الغرب لنظام

غير شرعى وغير أخلاقي للتعدد يشير إلى اعتراف الغرب بالضرورات التى تبيح التعدد ، والمرتبطة بطبعية الجنسين، ويطبيعه العلاقات الاجتماعية بين البشر . ومع ذلك فعندما يبحث الغرب عن حل لهذه الأمور يأتى بحل غير أخلاقي يسمح بالتعدد خارج إطار الزواج والأسرة، ويتناسب مع الفهم الغربى الموج لمفهوم الحرية فى العلاقات بين الجنسين وتكون النتيجة التى يعانى منها الغرب حالياً وهى انتشار المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والأمراض النفسية والصحية ، وتفكك العلاقات الأسرية وهى أمر مؤدية إلى النهاية إلى تدهور المجتمع وسقوطه .

الفصل الرابع

آثار الفكر الاستشراقي في المجال الاقتصادي

١- دور الغرب في تدهور الاقتصاد الإسلامي :

امتدت آثار الفكر الاستشراقي إلى الحياة الاقتصادية للMuslimين في القرن العشرين حيث وقعت المجتمعات الإسلامية تحت تأثير نظريتين اقتصاديين من النظم الاقتصادية الغربية المتنافضة وهما : النظام الرأسمالي والنظام الشبوعي . وقد لعب الاستشراق الدور الرئيسي في إحداث هذا التأثير . وقد كان الدور الاستشراقي دوراً مزدوجاً حيث جمع بين الهجوم على النظام الاقتصادي الإسلامي ونقده ، واتهامه بالعجز في حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الإسلامية ؛ وبين نقل النظريات الاقتصادية الغربية لكن تكون بديلاً للنظام الاقتصادي الإسلامي . وقد اهتم مستشرقو الغرب الرأسمالي بشرح الرأسمالية وتفسيرها لشعوب الشرق ، وتصویرها في صورة النظام الاقتصادي النموذجي للعالم الإسلامي . وفي نفس الوقت سعى المستشرقون الشبوعيون إلى شرح النظرية الاقتصادية الشيوعية الاشتراكية ، والمعلم على نشرها في البلاد الإسلامية التي وقعت تحت النفوذ السياسي والاقتصادي للاتحاد السوفييتي قبل انهياره . بل إن الأمر لم يتوقف عند حد تقديم النظريتين، ولكن تعداه إلى إعادة تفسير التاريخ الاقتصادي الإسلامي من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين ، وتقديمهما على أنها لا يمثلان خروجاً على النظام الاقتصادي الإسلامي .

وبداية نقول إن تدهور الاقتصاد الإسلامي في الماضي لم يكن سببه خلل أو ضعف في النظام الاقتصادي الإسلامي، ولكنّه يعود إلى الحرب الاقتصادية التي شنها الغرب على العالم الإسلامي الذي كان ملقيه المغرافي فوائد اقتصادية عظيمة «حيث تحكم المسلمين في طرق التجارة القديمة وفي المسالك البرية والبحرية بين أوروبا وأسيا». كما تمكن من السيطرة على التجارة البحرية في المحيط الهندي، وأنشأ علاقات تجارية منتظمة مع الشعوب المجاورة، وتمكن من الاتصال المنظم بهذه الشعوب وثقافتها، وتفوق عليها في تقديم الوسائل الاقتصادية والفنية وفي المدنية المادية بوجه عام^(٣٩)، ويعرف المستشرق جب بأن التدهور الاقتصادي للعالم الإسلامي يعود إلى أسباب داخلية وخارجية. ويشرح الأسباب الخارجية بقوله: «أما ثانية الضربات القاضية فقد أتت من أن أوروبا اهتدت إلى أن العالم الإسلامي يمكن أن تؤخذ عليه السُّبُل طبيعياً واقتصادياً في آن واحد إذا فتح الطريق البحري إلى غرب أفريقيا والهند. ولم تكن نتيجة هذا قاصرة على نزف أكبر معين للرخاء الاقتصادي، ولكنه جعل العالم الإسلامي في عزلة ... وقضى عليه بالكساد الاقتصادي وبكل ما يصعبه من الآثار في الحياة العقلية والأدبية للأمة»^(٤٠). ثم يربط جب بين الهجوم الاقتصادي السياسي فيقول: «سار العالم المسيحي في الهجوم الاقتصادي بخطوات سريعة. فالشركات التجارية الأوروبية لم تقف بباعث من المنافسات الدرلية عند احتكار حمل تجارة الدنيا القديمة فحيثما كانت السلطة السياسية المحلية تدعى إلى التدخل كانوا يحلون حكمهم المباشر محلها. وبذلك بدأوا

ينشرون سلطانهم السياسي شيئاً فشيئاً على بلاد إسلامية مختلفة ... ويشقون بالقوة منفذًا في العالم الإسلامي لمنتجاتهم الخاصة منافسين مصنوعات البلاد المحلية^(٤٢). وهكذا سار التغلغل الاقتصادي مقارنًا للنشاط السياسي وانتهى بتوطيد هولندا قدمها في جزر الهند الشرقية والجبلترا قدمها في الهند على حساب الدول الإسلامية . وتم الاستيلاء على السوق الشرقي لتصرف نتاج المصنع الأوروبية ، وربط الحياة الاقتصادية المسلمين بالحياة الاقتصادية لأوروبا مما أدى إلى إضعاف الاقتصاد الإسلامي وقدانه لاستقلاله^(٤٣).

وقد استمر هذا التدهور الاقتصادي للمسلمين منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وحتى وقتنا الحالي . ونتج عنه التبعية الكاملة للغرب في المجال الاقتصادي . ومن مظاهر هذه التبعية تغلغل النظم الاقتصادية الأوروبية إلى أن تم نشر الفكر الاقتصادي الغربي في القرن العشرين في بلاد المسلمين من خلال فرض الرأسمالية والشيوعية على البلاد الإسلامية . وقد نتج عن هذا في التاريخ الاقتصادي الحديث والمعاصر للمسلمين ما يلى :

أ- ضياع الوحدة الاقتصادية للمسلمين . فقد أصبح العالم الإسلامي موزعاً بين النظمين الرأسمالي والشيوعي، وأصبحت تجاراتهم تابعة تبعية كاملة لأحد النظمين . وتم ربط الاقتصاد في المجتمعات الإسلامية بالاقتصاد الرأسمالي والشيوعي ، وفقد المسلمون مكانتهم الاقتصادية العالمية وأصبحت بلادهم سوقاً واسعة للمنتجات الصناعية والزراعية للعالم الغربي .

- بـ- أدت التبعية لنظامين اقتصاديين متناقضين إلى تفتيت وحدة العالم الإسلامي ، فانقطعت العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلاد الإسلامية، وأصبحت كل مجموعة من هذه البلاد تابعة لبلدان النظام الاقتصادي الذي تتبعه، وانقسم المسلمين بين المعاشرين الرأسمالي والشيعي .
- جـ- تعطيل المؤسسات الاقتصادية الإسلامية ، ووقف تطورها وغواها لمصلحة المؤسسات الغربية واستبدال النظم الاقتصادية الإسلامية بنظم غربية خالصة .
- دـ- نقل القيم الاقتصادية الغربية والمبادئ المتحكمة في نظام السوق الغربي ، والقضاء على القيم الإسلامية التي تحكمت في الاقتصاد الإسلامي .
- هـ- عرقلة البرامج الاقتصادية الإسلامية والجهود التنموية للمجتمعات الإسلامية .

٢- الصحوة الإسلامية وإصلاح النظام الاقتصادي :

وفي التاريخ المعاصر للمسلمين ومع تبلور الصحوة الإسلامية بدأت المجتمعات الإسلامية تسعي إلى إحياء وتنشيط العمل الاقتصادي الإسلامي على أسس إسلامية . وقد انبرت الدراسات الاقتصادية توضح عدم صلاحية النظائر المستوردين من الغرب للحياة الإسلامية ، وتوضيح فضل النظام الاقتصادي الإسلامي . وقد تبيّن هذه الصحوة على المستوى الاقتصادي إنشاء مؤسسات اقتصادية إسلامية تتخذ من نظريات الاقتصادية الإسلامية أساساً لها ، وتحاول تطويرها لتناسب متطلبات العصر بدون الإخلال بالأساس الإسلامي .

ومن أهم الأسس التي تعتمد عليها النظرية الإسلامية في الاقتصاد والتي تميزها عن النظرية الغربية الأساسية الدينى العقدي الذى يعتبر الله سبحانه وتعالى مالك الملك ، وأن الإنسان المخلوق مستخلف في الأرض لعمارتها ، وأن الغاية من حياة البشر عبادة الله ، وأن العمل الصالح هو لب العبادة ، وأن الاتساع والسعى ابتناء لفضل الله ، وأن لكل عمل جزاء ، ولا جزاء بلا عمل ، وكل غنم يُغنم فلا يحل كسب يرفع عن صاحبه احتساب الخسارة ، وأن المجتمع الإنساني مجتمع متكافل والتمايز فيه بقدار المعدل لصالح المجتمع ككل ، وأن واجب الدولة تحقيق العدل والإحسان وحفظ الأمانة . فالترحيد والاستخلاف والشواب والعقاب من أهم القواعد التي يرتكز عليها الاقتصاد الإسلامي^(٤٤) .

وهناك الأساس الأخلاقي المميز للنظام الاقتصادي الإسلامي وهو يمثل في تحرير الفرد من السيطرة ، وعدم الخضوع إلا لذات الخالق ، ونفع عباد الله ، وجلب المنفعة المادية ، والتمتع بالطيبات والمحلال . وهناك الأساس التشريعية التي تتناول العمل والملكية والتبادل والعقود وواجبات الدولة وحقوقها قبل المعاملات والتي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأحكام الفقهاء والمجتهدين^(٤٥) .

وهكذا يتضح أن الفكر الاقتصادي الإسلامي مرتبط بالعقيدة والشريعة ، وأن السلوك الاقتصادي للمسلم ليس منعزلاً عن قواعد الدين والأخلاق ، وأن الأفكار الاقتصادية مرتبطة بالدين . وهذه ميزة خص الله - سبحانه وتعالى - بها الحياة الاقتصادية الإسلامية . «فالرفاهية الإنسانية لا تُقاس في الإسلام بمقاييس نقدى ، وإنما بالمواصلة بين كسب

النقد من مصدر حلال وإنفاقها وفقاً ل تعاليم الإسلام بما يحقق مجتمع الرحمة والعدل »^(٦).

ولعل من أهم ما يميز النشاط الاقتصادي في الإسلام طابعه التعبدي، فعمل المسلم عبادة يُثاب عليه إذا كانقصد منه تبلي رضي الله. وهو نشاط لا يهدف إلى تحقيق النفع المادي فقط ولكنه يسعى إلى تحقيق هدف أسمى وهو «إعمار الأرض وتهيئتها للحياة الإنسانية». تحقيقاً لخلاقة الإنسان في الأرض وإيماناً بأن الله سيسأل الإنسان عن هذه الخلافة»^(٧). وخلو النشاط الاقتصادي الفردي من هذه الغاية هو الذي أدى إلى سيادة المصلحة الشخصية المؤدية إلى تحقيق السيطرة الاقتصادية، وغلبة الطابع الاحتكاري على السوق. كما أن غياب الرقابة الدينية على النشاط الاقتصادي في الغرب أدى إلى انحرافه وانتشار ظواهر التسيب والإهمال والاختلاس^(٨).

وتتطلب عملية تطوير النظام الاقتصادي الإسلامي في الوقت الحالي مراجعة الفكر الاقتصادي في صدر الإسلام لفهم الظواهر الاقتصادية، ومعرفة المبادئ التي وضعت لتنظيم الشئون الاقتصادية، والمبادئ التي حددت السلوك الاقتصادي للمسلم وإبراز أهمية الفكر الإسلامي في إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية على أساس من القيم الدينية والأخلاقية. وتوضيع فضل الفكر الاقتصادي الإسلامي على الفكر الاقتصادي في الغرب. وهو أمر تجاهله المستشرقون الذين يتتجاهلون الجهد العلمي التي بذلها المسلمين في تطوير الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى التي عانى فيها الفكر الأوروبي من الانحطاط خاصة

في مجال الفكر الاقتصادي^(٤٩). كما أنهم في تناولهم لموضوعات الاقتصاد الإسلامي حاولوا دراستها خارج الإطار الديني والأخلاقي الذي وضعَت فيه. فالأمانة والصدق ورعاية المقاصد الشرعية الكبرى ، وجود ولئِ أمر يعاقب المذنبين ويُسْهِر على التزام المتعاملين بحدود الشريعة وأخلاق الإسلام ... يمثل هذا كلَّه الإطار العام الذي تحرك داخله الأفراد والشركات في النظام الإسلامي^(٥٠) وفي هذا يقول جارودي «الاقتصاد الإسلامي لا يهدف في مبنائه القرآني إلى النسو بل يهدف إلى التوازن . لذا لا يمكن مقارنة الاقتصاد الإسلامي بالنظام الرأسمالي ... ولا بالنظام الجماعي على الطريقة السوفيتية . إن من ميزاته الأساسية عدم الخضوع إلى حركة عصبة . يجعل الاقتصاد غاية في ذاته . بل يتعلّق بأهداف سامية إنسانية والهيبة تتجاوزه»^(٥١).

الفصل الخامس

الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الثقافي والفكري

يعتبر المجال الثقافي والفكري من أخطر المجالات التي يستخدمها الاستشراف لإحداث تأثيره الكبير على الحياة الفكرية في المجتمعات الإسلامية . فعن طريقه انتقلت الأفكار والمذاهب الغربية خلال القرنين الأخيرين ، ووُجِدَت لها مكاناً في الحياة الثقافية للمسلمين . ونظراً لتنوع مذاهب المستشرقين وأيديولوجياتهم فقد تعددت أشكال الغزو الفكري ، وتنوعت الاتجاهات الفكرية ، وكثُرت المذاهب التي أزاحت بها الساحة الفكرية في المجتمع الإسلامي مثل الشيوعية ، والاشراكية ، والعلمانية ، والرأسمالية ، والقومية ، والليبرالية ، وغيرها من المذاهب التي سيطرت على قطاعات عريضة من المفكرين والمشقين في العالم العربي والإسلامي .

ويعتبر الفكر الاستشرافي - في حد ذاته- من أخطر أنواع الفكر تأثيراً على الفكر الإسلامي . فالمستشرقون كمجموعة من العلماء تخصصوا في العلوم الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي، وتعصّموا في الفكر الإسلامي ، أصبحوا على قدر كبير من المعرفة بالجوانب التي يمكن للغزو النكاري الغربي أن ينفذ منها إلى الفكر الإسلامي. فالشخص في دراسة المجتمعات الإسلامية جعل المستشرقين على دراية بموطن الضعف التي يمكن استغلالها في توصيل المعرفة الغربية. كما أنهم تشعوا بقدر

من القوة والنفوذ بسبب ارتباطهم بالاستعمار والتنصير والصهيونية الأمر الذى جعلهم على مقدرة من تنفيذ خططهم لتغيير وجه الثقافة الإسلامية ، والعمل على تفريب العالم الإسلامي . وقد تكون بعض القادة من المستعمرين من القيام بدور ثقافي كبير فى تحقيق الغزو الفكري للشعوب الإسلامية التى كانت خاضعة للاستعمار . ونكتفى بالإشارة إلى الدور الذى لعبه اللورد كرومر فى مصر وجلوب باشا وجوردون فى السودان ^(٤٢) .

وقد تكون الاستشراق من النهاز إلى الفكر الإسلامي الحديث من خلال العديد من النظريات الغربية التى ارتبطت بالعلوم الإنسانية والاجتماعية التى تدرس فى العديد من الجامعات العربية والإسلامية ، ويدون إعطاؤه البديل الإسلامى لهذه النظريات . ومن هذا الطريق تسربت إلى التعليم الجامعى معظم النظريات الغربية فى التاريخ ، والدين ، والاجتماع ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والأخلاق .. وغير ذلك من المجالات العلمية . وقد انتقلت هذه النظريات من ساحة التدريس بالجامعات إلى الحياة الفكرية والثقافية العامة ، وذلك لما للجامعات من دور فى نقل الفكر خاصة وأن معظم الأكاديميين اشغלו فى الحياة الفكرية العامة لبلادهم ، ولهم تأثيرهم الكبير على الحركة الفكرية التى يغذونها بالنظريات ، والأراء ، وعمليات النقد المختلفة ^(٤٣) . وقد نجح الاستشراق فى تكوين قاعدة علمية وثقافية له من أبناء المسلمين الذين يقومون بترسيخ آراء المستشرقين ونظرياتهم فى بلادهم الإسلامية وت تكون هذه القاعدة الاستشرافية العلمية من تلاميذ المستشرقين تلقوا تعليمهم

العالى فى جامعات ومعاهد الغرب تحت إشراف المستشرقين ، ويدون وجود أساس ديني وأخلاقي قوى يحصنهم ضد الآراء الاستشراقية ، وعادوا إلى بلادهم - أو بقوا في الغرب - يرددون النظريات والشببه الاستشراقية ويقومون على شرحها ، وتفصيلها ، وتطبيقاتها فى تخصصاتهم . وقد كان لهم دور كبير فى نشرها نظراً لأنهم يكتبون بالعربية ، أو بإحدى لغات الشعوب الإسلامية بينما ظلت معظم آراء المستشرقين حبيسة الكتاب الأجنبي المكتوب بلغة أجنبية لا يعرفها القارئ المسلم فى معظم الأحوال ، أو لا يستطيع الحصول عليها فى حالة معرفته للغة الأجنبية .

ويهدف الغزو الفكرى الاستشراقي للثقافة الإسلامية إلى تحقيق عدة أهداف نرصد منها الأهداف التالية :

- ١ - تشتيت الجهد الفكرية والثقافية والعلمية لل المسلمين وذلك بنشر النظريات والأراء الغربية الفاسدة التي لا تصلح للمجتمع المسلم ، وإشغال المفكرين المسلمين بالرد على هذه النظريات والأراء ، وخلق مناخ من الفوضى هدفه إبعاد العلماء المسلمين عن التفكير في القضايا الإسلامية الحقيقة التي يواجهها العالم الإسلامي مثل قضايا التخلف العلمي، وقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وعلاج هذه المشاكل على أساس من المنهج الإسلامي في التفكير، وعلى أساس من القاعدة الدينية والأخلاقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وتسعى الجهد الاستشراقي في هذا الصدد إلى طرح العديد من البدائل العلمانية والخلوّل الغربية لقضايا المجتمع الإسلامي بدعاوى عجز الفكر

الإسلامي عن إيجاد حلول لمشاكل الحديثة التي يتعرض لها المجتمع المسلم ؛ ويدعو ربط التخلف بالدين، واعتبار الدين عقبة في سبيل تقدم المجتمع ؛ ويدعو أن الغرب لم يتقدم علمياً إلا بعد هجر الدين وعزله ، وفصل الدين عن الدولة ، واعتبار الدين أمراً شخصياً يُمارس على المستوى الشخصي ويجب ألا يكون له دور في تنظيم وإدارة شئون الجماعات . وأنه على المجتمع المسلم أن يسير في طريق الغرب ويتبنى طرقه ووسائله وأفكاره إذا أراد أن يحقق التقدم العلمي والتنمية المنشودة في كل مجالات الحياة الإسلامية .

وقد نجح الاستشراق في إثارة الشكوك الإسلامية حول جدوى التمسك بالتناول الإسلامي أو المعالجات الإسلامية لمشاكل المجتمع المسلم، فهو يشكك في قيمة التعليم الديني السائد خاصة في الجامعات الإسلامية ، ويدعو إلى ما يسميه تحديث العلوم والمناهج، وهجر الطريق التقليدية في التعليم ، ووضع أسس جديدة للتعليم تقوم على نظريات ومناهج غربية . ومن الملاحظ أن الاستشراق نجح في غزو الجامعات غير الدينية المنتشرة في العالم الإسلامي واستخدامها في ترويج النظريات الغربية في كل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية . كما تم تعديل المناهج الدراسية إلى الحد الذي أصبحت فيه مشابهة للبرامج العلمية التي تدرس في الجامعات الغربية. وتم الاعتماد في هذه الجامعات في المجتمع الإسلامي على تدريس الكتب الغربية الأصلية من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية وبدون نقد علمي وإسلامي لها؛ أو عن طريق تأليف كتب في هذه الموضوعات

والشخصيات الغربية تشرح النظريات الغربية وتدافع عنها. ويسود هذا الاتجاه في العديد من الأقسام العلمية في الكليات النظرية مثل أقسام الاجتماع ، وعلم النفس ، والفلسفة ، وال التربية ، والخدمة الاجتماعية . وقد حظى الشخصان الأخيران بكليات كاملة تقوم على تدريس البرامج التربوية والخدمة الاجتماعية موزعة على عدة أقسام علمية .

ويجب أن نشير في هذا المخصوص إلى نجاح الاستشراق في خلق مناخ من الصراع الفكري والعلمي بين المؤسسات العلمية والتعليمية في المجتمعات الإسلامية، وخلق فجوة كبيرة في البرامج التعليمية، والتوجهات الفكرية للتعليم في العالم الإسلامي. وأصبحت الجامعات في العالم الإسلامي موزعة بين عدة توجهات أو رؤى متضارعة تساعد على تقوية العلاقات الفكرية داخل المجتمع المسلم . فهناك الجامعات الإسلامية ذات التوجه الإسلامي الواضح ، والتي تهتم بعلوم الدين الإسلامي وبالتجويم الإسلامي للعلوم في مقابل التوجهات العلمانية المسيطرة على النوع الثاني من الجامعات المنتشرة في العالم الإسلامي . وهي الجامعات غير الدينية أو غير المتخصصة في علوم الدين، ومع ذلك فهي تحتوى على أقسام للعلوم الإنسانية والإجتماعية تتبنى النظريات الغربية. و تعالج الدين من زاوية غربية خالصة يطلب عليها الترجمة العلماني وتُخرج طلاباً على نوعية مختلفة من الفكر والثقافة والتفكير التي تهتم بها الجامعات الإسلامية . هذا وقد تمكن الاستشراق من إنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية غربية خالصة داخل المجتمع الإسلامي ، تتبع النظم الغربية في التعليم تبعية مطلقة^(٥٤) ، بل وتقع تحت الإشراف

الأجنبى وليس للسلطات العلمية والتعليمية الوطنية أية سيطرة عليها من أى نوع . فهناك مثلاً الجامعات الأمريكية المنتشرة فى مصر ، ولبنان ، وبعض بلاد العالم الإسلامي الأخرى ، وهناك الجامعات البريطانية المنتشرة فى الهند ، والسودان ، والباكستان وغيرها . وهناك الجامعات الفرنسية فى مصر والشمال الإفريقي وعموم القارة الإفريقية وفي المستعمرات الفرنسية السابقة . وفي هذه الجامعات التى تنشر الثقافة الأمريكية والبريطانية والفرنسية والأوروبية عامة يسود النظام الغربى فى التعليم ، وتسود النظريات الغربية ، وسود التوجه العلمانى الإلحادى المعادى للدين . بل والأخطر من هذا كله خضوع علوم الدين الإسلامى فى هذه الجامعات للمناهج الاستشرافية فى الدراسة والتدريس حيث أن هذه الجامعات والمؤسسات ما هي إلا بئر استشرافية فى قلب العالم الإسلامي تخضع علوم المسلمين لنبع المستشرقين بتسو吉اته العلمانية اللادينية . خاصة وأن هذه الجامعات بها أقسام استشرافية خالصة مثل أقسام دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت تدرس بها العلوم المختلفة من وجهة نظر استشرافية بحثية ، ويقوم على ذلك فريق من المستشرقين بالإضافة إلى عدد من العلماء المسلمين الذين تربوا فى أحضان الاستشراف ومؤسساته الأوروبية . وكان الاستشراف قد نجح أيضاً فى التغلغل إلى التعليم الابتدائى ، والإعدادى ، والثانوى بفتح مدارس أجنبية إنجليزية ، وفرنسية ، وإيطالية ، وألمانية ، ويونانية ، ويهودية... بدعوى خدمة الطوائف والأقليات المختلفة المنتشرة فى بلاد العالم الإسلامي الخاضع للاستعمار آنذاك . وقد اشتهرت هذه المدارس تؤدي وظائفها بعد نهاية

الاستعمار كثُر ومراكيز للثقافات الغربية تنشر الفكر الغربي وتدعوه . وقد انتقلت المدوى إلى التعليم الوطني ذاته فسمحت وزارات التعليم في كثير من بلاد العالم الإسلامي بفتح مدارس ل اللغات الأجنبية خاصة الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية ، ومراكيز ثقافية أجنبية دون أن تضع عليها الرقابة العلمية والثقافية لمنع تحولها إلى مراكز للمغزو الفكرى تعمل على تغريب العالم الإسلامي من الداخل متعاونة مع الدوائر الاستشاراقية الأمريكية والأوروبية .

٢- نشر القيم الغربية :

سعى الاستشراق دائمًا إلى نشر الأفكار الهدامة والأراء الفاسدة هادئًا إلى هدم الأخلاق الإسلامية ، ونشر القيم الغربية في المجتمعات الإسلامية من خلال الدعوة إلى الاتجاهات الأدبية والفنية التي لا تلام البيئة الإسلامية والتي تعكس قيمًا غربية خالصة . ويلاحظ في هذا الجانب اهتمام بعض المستشرقين بنشر وتحقيق نماذج ونصوص من الأدب السليم المدفون في بعض المصادر الأدبية القديمة، بل واعتبار ما تقدمه من نماذج لحياة منحرفة وفاسدة على أنه من طبيعة الحياة الإسلامية . وفي هذا المخصوص نشير إلى بعض الأعمال الأدبية التي لقيت اهتمامًا كبيراً على يد المستشرقين تحقيقًا ، ونشرًا ، وترجمة مثل «ألف ليلة وليلة»، وكتاب «الأغانى» للأصفهانى ، وما شابه ذلك من الأعمال الأدبية التي تعرض لألوان من الأدب الخالى من القيم الإسلامية . وقد توسع المستشرقون من ناحية أخرى في استخدام مثل هذه الأعمال كمصادر أساسية لموضوعات ودراسات تدخل في مجال الدراسات الدينية

والعقدية. وهو سوء استخدام لهذه المصادر في غير مواضعها مع إهمال المصادر الإسلامية الأساسية التي تعطي الصورة الإسلامية الصحيحة للموضوع المدروس .

وفي نفس الوقت سعى بعض المستشرقين إلى نشر الاتجاهات الأدبية والفنية الغربية؛ وبعضها يدعو صراحة إلى الابتذال، والانحلال، والفساد باسم الأدب والفن . ومعظم هذه الاتجاهات مثل الرومانسية، والرمزية، والシリالية في الأدب والفن تعكس قيمًا غربية خالصة، وتعبر عن مشاكل المجتمع الغربي وأزماته ، ولا تصلح أبداً للتعبير عن قضايا المجتمع المسلم المختلف عن المجتمع الغربي في طبيعته وأسلبه ، كما أنه لم ير بنفس المشاكل الغربية التي نتجت أصلاً عن البعد عن الدين ، وفصل الحياة الدينية عن الدنيوية ، فانتشر الفساد والانحلال ، وظهرت مشاكل عبر عنها الأدب الغربي بأساليبه ووسائله الخاصة .

والتي لا تصلح للتعبير عن مشاكل المجتمع المسلم فضلاً عن علاجها . ولقد ظهرت الاتجاهات الأدبية والفنية في الغرب استجابة لعوامل داخلية ومشاكل المجتمع الغربي ، وهي اتجاهات يجمعها الإيمان بالحرية المطلقة للإنسان وللعقل الإنساني، والإيمان بعدم جدوى الالتزام بالدين والقيم النابعة منه ، والاعتقاد في عبودية الحياة الإنسانية وسيادة اللامعقول فيها كنتيجة عكسية للاعتماد الكلى على العقل وما يتتجه من قيم إنسانية نسبية .

والحقيقة أنه مع الفزو الفكرى للمجتمعات الإسلامية انتقلت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية ، وتلقفها الأدباء ، والفنانون المسلمين المقلدون

للغرب، والمتبررون بأفكاره ونظرياته دون أن يفكروا في مناسبتها للمجتمع المسلم، أو فيما تحتويه من قيم فاسدة ومنحلة لا تصلح للإنسان المسلم. لقد أدت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية إلى نشر قيم غربية فاسدة بين الشباب المسلم الذي يتلقى هذه القيم من خلال الأعمال الأدبية القصصية والروائية والمسرحية ، ومن خلال الأعمال الفنية التشكيلية وغيرها. وفي هذه القيم تقليد للمجتمع الغربي ، وهجر للتقاليد والعادات الإسلامية ، وخروج على التراث الإسلامي الأصيل في الأدب والفن ، ووقع في الرذائل بتنوعها ، وفي الإنحلالية ، والإباحية ، والعبثية ، وإثارة للصراع داخل المجتمع المسلم بين قيم الإسلام وتقاليده وقيم الغرب المستحدثة .

٣- نشر الفكر غير العقلي

عمل الاستشراق على نشر الخرافات وأساطير في المجتمعات الإسلامية ، ومحاربة الإسلام كدين للعقل ، وتشجيع الاتجاهات الدينية والفرق الصوفية التي تحتوى أفكارها وعقائدها ومارستها على عناصر تساعد على تغريب العقل المسلم ، أو توجيهه خدمة أهداف ترفع من قيمة الخرافات ، وتهدر القيم العقلية، وتسلب المسلم قدراته العقلية. ويظهر هذا الهدف الاستشاري في الاهتمام الذي يوليه الاستشراق لتحقيق ونشر وترجمة الأعمال الخاصة بالفرق الإسلامية والطرق الصوفية وكذلك في الدراسات التي تهتم بالأداب الوثنية التي أنتجهما الشعوب الإسلامية في فترة جاهليتها قبل دخولها في الإسلام مثل الاهتمام بأساطير العربية القديمة ، وأساطير شعوب الشرق الأدنى القديم .

وقد ظهر الاهتمام الاستشرافي بتواريخ وأداب وحضارات الشعوب الإسلامية قبل دخولها في الإسلام من أجل العمل على إحياء النزعات القومية لدى هذه الشعوب ، والعودة بها إلى تاريخها السابق على الإسلام ، وإحياء العصبيات القديمة، وإحياء العادات والتقاليد الوثنية القديمة، كما يُشاهد ذلك في الاحتفالات المناسبات والأعياد القرمية ، والمهرجانات التي تُعقد في هذه المناسبات والتي تعكس أنكاريًا غير إسلامية ، وتحجد أعمالاً وثنية ، وتنشر عادات وتقاليد وثنية قضى عليها الإسلام ، وتشير القوميات والعصبيات التي تمكّن الإسلام من القضاء عليها . وتهدف من العودة إلى التراث الأسطوري السابق على ظهور الإسلام إلى تمجيد أبطال التاريخ القديم، وإحياء أعمالهم بما تحتويه من أنكاريًا خرافية وأساطير عن أعمالهم الخارقة للعادة والتي تخرج بهؤلاء من دائرة البشرية إلى دائرة الألوهية . وكل هذا يؤدي بلا شك إلى الإضرار بالمسيرة العقلية للمسلمين ، وتعطل تقدمهم العلمي ، وتدفعهم إلى الإيمان بالخوارق والكرامات والسحر وغير ذلك من الأمور المؤدية إلى التخلف العقلي للمسلمين^(٤٥) . ولعل هذا يشرح سر الاهتمام الاستشرافي بالتصوف الذي تخصص فيه عدد من أبرز المستشرقين أمثال لويس ماسينيون ، وهنري كوريان، ونيكلسون : والذين اهتموا بتحقيق الكتابات الصوفية ونشرها وترجمتها ، كما اهتموا بالطرق الصوفية المعاصرة ومارستها ، وركزوا على إبراز تجاذب المتصرفه وأعمالهم بما تحتويه من شطحات لا يقبلها العقل السليم ، وما ترويه من كرامات ومعجزات ، وما تدعوه إليه حياتهم من تواكل وإهمال للواجبات

والفرضيات الدينية ، وتعطيل الأحكام والتكاليف الشرعية ... وكلها أمور تنحرف بالسلوك الإسلامي وتنمى لدى المسلم الإيمان بالخرافات والأساطير ، وتشغله عن واقعه الإسلامي بأمور غيبية ، وتفاسير باطنية ، ورموز غير عقلية ؛ وتبعده عن التفكير العقلى السليم ، وتقتل عنده قيمة العمل الذى تقوم عليه الحياة . وكل هذه آثار سلبية للتصوف حرص الاستشراق على إظهارها ونشرها وتقديمها على أنها تمثل الروح الدينية الحقيقية فى الإسلام . فالتصوف يمثل عندهم التجربة الدينية الحقيقية عند المسلمين ، أو المعبر عما يسمونه بالروحانية الإسلامية . ولعل من أسباب هذا الميل الاستشرافي إلى التصوف إضعاف الروح العلمية عند المسلمين ، واستقطابهم إلى التفكير الصوفى بأساسه غير العقلى ونتائجـه المؤدية إلى تفسيـب العـقل المـسلم وإبعـادـه عن واقعـه وقضـاياـه المعاصرـة الـتـى تتطلبـ الـبيـنـةـ السـامـةـ . والـوعـىـ السـلـيمـ ، والإـدـراكـ الـعـلـمىـ حتىـ يـتـمـكـنـ مـنـ عـلاـجـ هـذـهـ القـضـاياـ وـالـعـيشـ حـسـبـ مـقـتضـيـاتـ الـعـصـرـ الـعـلـمـيـ وـفـيـ ظـلـ رـعـاـيـةـ الـدـينـ وـرـقـابـتـهـ .

٤- تشجيع الثقافات القومية

عمل الاستشراق على تشجيع الثقافات القومية المؤدية إلى إحياء النزعات القومية لدى الشعوب الإسلامية ، وذلك من خلال التركيز على دراسة الآداب القومية لكل شعب إسلامي على حدة وتشجيع ما يسمى بالأداب الشعبية والإقليمية التي تميل بطبعتها إلى تمجيد أبطال السير الشعبية في كل إقليم إسلامي الأمر الذي ينتجه عنه الرفع من شأن الشخصيات التاريخية القومية ، والتركيز على الجوانب القومية في هذه

الشخصيات على حساب الجوانب الإسلامية ، وتجهيز الطاقات الأدبية والفنية لتخليص هذه الشخصيات من خلال كتابة سيرهم في لغة إقليمية وعامة الأمر الذي ساعد على تدهور الذوق الأدبي والفنى، وانحدار المرضوعات الأدبية والفنية إلى السطحية والابتذال اللغوى والأسلوبى ، وتعطيل الرؤى الحقيقية للأدب فى لفته الفصحى وهى تشريف الشعوب العربية والإسلامية ، ورفع مستواها الفكري ، ودرجة تذوقها الأدبي واللغوى والسمو بأفكارها .

ولاشك فى أن هذا الاهتمام الاستشرائى بالأدب القومية والإقليمية والشعبية فيه تفتت للوحدة اللغوية عند المسلمين ، وهو دور تقوم به اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم التى يستخدمها المسلمون فى كل مكان . فالتركيز على الآداب الشعبية والإقليمية يؤدى بطبيعة الحال إلى تفضيل استخدام اللغات واللهجات المحلية والقومية كلفة للتعبير عن مضامين قومية وشعبية ، وهجر اللغة العربية الفصحى ولغات الشعوب الإسلامية الرئيسية التى يتحدث بها أعداد ضخمة من المسلمين مثل التركية والفارسية والأوردية ، واستخدام لهجات محلية ومضامين موضوعات قومية ومحلية تؤدى فى النهاية إلى إحياء العصبيات وتفریغ هذه الموضوعات من مضامينها الدينية والأخلاقية الإسلامية لعبر عن قيم خاصة بجماعات خاصة منفصلة عن المجتمع الإسلامي الكبير.

ولعل من قبل تشجيع الثقافات القومية تركيز قطاع من الدراسات الاستشرافية الأدبية على نشر الدواوين الشعرية التى تغطى أغراض المديح والهجاء ، والفخر والغزل لما لهذه النوعية من الأغراض الشعرية من

دور في نشر القيم السلبية في المجتمع الإسلامي . فهي بلاشك مشيرة للأحقاد والمعصبات والقوميات التي تحجج الإسلام في وضع نهاية لها حين وحد المسلمين حول العقيدة . كما يدخل في هذا المجال تشجيع نشر الأعمال التي تتحدث عن مثالب الشعوب بهدف تجذّبّة الأمة الإسلامية إلى عدة شعوب متناحرة متصارعة تفخر بآهانها وأعمالها في الجاهلية، وتحمي سير أبطالها قبل الإسلام ، وتحتفل بأعيادها القومية ، وتتفاخر على بعضها البعض باظهار محسنة وأمجادها وإبراز مثالب غيرها . وتتفق هذه الرؤية الاستشراقية مع المحاولات التي ظهرت داخل العالم الإسلامي من ثنات تسعى إلى إحياء التراثات القومية التي تقضى عليها الإسلام مثل بعث الفرعونية في مصر ، والكتمانية والفينيقية في الشام، والآشورية ، والبربرية في الشمال الإفريقي ، والزنجية في إفريقيا ... الخ .

ولأجل إحياء هذه الثقافات والتراجم القومية اهتم المستشرقون بدراسة الأداب القدية السابقة على الإسلام ، وتاريخ شعوب الشرق الأدنى القديم وحضارته ، والتنقيب عن الآثار الدالة على هذا كله^(٥٦) . كما اتجهت الدراسات الاستشراقية إلى تشجيع دراسات الأقلية داخل المجتمع المسلم، ودفع هذه الأقلية إلى الاهتمام بشعاراتها ولهجاتها الخاصة ، وبعث لغاتها القدية . ومن النتائج الفعلية لهذا إحياء اللغة العربية كلغة للمسيهود في فلسطين ، وإحياء السريانية كلغة للحديث والكتابة بين بقايا السريان في العراق وسوريا ، وكذلك محاولة إحياء القبطية بين أقباط مصر .

وبالإضافة إلى هذا كله لا يخفى الاهتمام الاستشرافي بموضوع أدب الشعوبية ، وأدب الفرق الإسلامية ، وشعر النقانص لأن كل هذه الأنواع الأدبية الخاصة تساعد على تقوية التزعزعات القومية ، والانحرافات الدينية ، والتناحرات الاجتماعية وتؤدي في نهاية المطاف إلى تحيزنة المجتمع الإسلامي ، وتفتبيه إلى عدة قرميدات وفنانات اجتماعية متصارعة . وهي في مجتمعها وتتنوعها تؤدي إلى انحلال المجتمع الإسلامي على المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

الفصل السادس

الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في مجال العلوم الإسلامية

لما المستشرقون إلى استخدام عدة وسائل علمية لتشويه الدين الإسلامي وتشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وفيما يلى عرض موجز لهذه الوسائل .

١- التشكيك في مصادر العلوم الإسلامية :

فقد ركز المستشرقون في البداية على القرآن الكريم والحديث النبوي باعتبارهما المصادرتين الأساسيةين للدين الإسلامي ، والنجاح في تشكيك المسلمين في صدقهما معناه في النهاية النجاح في القضاء على الدين الإسلامي . ولهذا اتجهت الدراسات الاستشرافية منذ نشأتها إلى القرآن الكريم مشيرة الشبهات حول مصدره الإلهي واعتبروه من وضع الرسول ﷺ ، وردوا كثيرا ما مادة الوحي الإلهي وموضوعاته إلى مصادر يهودية ونصرانية ، كما حاولوا إثبات وجود صلة للرسول ﷺ بشخصيات يهودية ونصرانية استقى منها الأفكار القرآنية منكرين الوحي القرآني إنكاراً تاماً .

ومن الوسائل العلمية التي استخدمها المستشرقون لتحقيق هذا الهدف - وهو تشويه القرآن الكريم ، والقول بانسانية مصدره وإنكار أنه وحى من عند الله سبحانه وتعالى - اللجوء إلى مناهج النقد الغربية

التي طرأت لدراسة النصوص الأدبية فيما يُعرف بمنهج النقد التاريخي والأدبي والذي طبّقه علماء الغرب على كتاب «العهد القديم» وكتاب «العهد الجديد» ، وعلى الأعمال الأدبية الكلاسيكية من أجل تحليلها ، ونقدّها ، وعلاج مشاكلها التاريخية والأدبية . وقد فعلوا هنا من منطلق أن «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى هو أدب عالٍ من وضع الإنسان، ويمثل أرقى الاتساع الأدبي للإنسان عبر العصور . وقد ظهر إلى هذه الأعمال على أنها أعمال متطرفة ، بمعنى أنها لم تؤلف دفعة واحدة، ولم يكتبها مؤلف واحد : ولكنها مرت بمراحل تطور تاريخية وأدبية تجعلها قابلة للنقد التاريخي والديني والأدبي . وهم في هذا لم يخرجوا على الحقيقة . فهذا «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد مر بمراحل تطور في تأليفه ، وجمعه وتشييّط نصوصه تصل إلى ما يقرب من ألف عام بالنسبة للتواري، وبقية كتب العهد القديم اليهودية ، وتصل إلى أربعة قرون بالنسبة للأنجيل وبقية كتب العهد الجديد النصرانية . وهي بهذا التطور التاريخي تغيرت مضامينها الدينية عبر مراحل التطور ، وتغير بناؤها الأدبي وأصبحت بالفعل مستحقة لاجراء عمليات النقد الأدبي والتاريخي والديني عليها^(٤٧) .

وقد اعتقد المستشرقون خطأً أن ما ينطبق على «الكتاب المقدس» من نقد ينطبق بالضرورة على القرآن الكريم متغاهلين الطبيعة المختلفة للوحى القرآني ، ومتغافلين عن حقيقة أن القرآن الكريم لم يمر بمراحل تطور مشابهة لتطور كتب العهد القديم والجديد . وقد ساعد على انتشار هذا الاتجاه الاستشرافي في نقد القرآن الكريم أن عدداً من

المستشرقين كانوا من المؤسسين لعلم «نقد الكتاب المقدس» في الغرب Biblical Criticism ولهم جهودهم البارزة في مجال الدراسات النقدية للعهدين القديم والجديد . ومن أهم هؤلاء المستشرقين على الإطلاق المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٨) الذي يعتبر مؤسس علم «نقد الكتاب المقدس» وهو أيضًا واحد من كبار المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية . وفلهاوزن صاحب نظرية كبيرة عُرفت باسمه في مجال نقد «الكتاب المقدس» وهو أيضًا صاحب مدرسة لاتزال إلى الآن لها أتباعها ومربيوها في حقل الدراسات النقدية للعهد القديم والعهد الجديد .

ومن أشهر المستشرقين الذين عاصروا فلهاوزن وعملوا على نشر المنهج النقدي التاريخي في مجال الدراسات القرآنية والحديثية المستشرق اليهودي المعروف أجناس جولدتسهير (١٨٥٠-١٨٢١)، وله أيضًا «تاريخ النص القرآني» (جورتنجن ١٨٦٠). وقد أعاد طبعه بعد تحقيقه والتتعليق عليه في مجلدين المستشرق فشوالي (١٨٦٣-١٩١٩) في ليبزج (١٩٠٩-١٩١٩) واشتراك كل من المستشرق برجشتراسر (١٨٦٦-١٩٣٤) وبريتسل (١٨٩٣-١٩٤١م) في نشر الجزء الثالث من «تاريخ النص القرآني» لنولدكه . وقد ألف برجشتراسر «تاريخ قراءات القرآن» (١٩٢٩) و«معجم قراء القرآن وترجمهم» (١٩١٢)، كما وضع بريتسل «تاريخ علم قراءة القرآن» . وألف أيضًا «مشروع لاستخدام أسلوب النقد في نشر القرآن» (١٩٣٠). ووضع المستشرق هـ هيرشفيلد (١٨٥٤-١٩٣٤) كتاب «بحوث جديدة

في ترتيب القرآن وتنسيقه»، وألف المستشرق ب. كاله «القرآن والعربية» (١٩٤٨)، ووضع المستشرق س. فرانكل (١٨٥٥-١٩٠٩) «الكلمات الأجنبية في القرآن» (اليدن ١٨٧٨). وقد سار المستشرقون على منهج فلهاوزن وجولد تسهير في المرحلة الحالية من الاستشراق. ومن أشهر من نفذوا هذا المنهج د. بل في كتابه «مدخل إلى القرآن» (أدنبرج ١٩٥٤) وأثر جفرى في «المفردات الأجنبية في القرآن الكريم»، ور. بلاشير «مدخل إلى القرآن» (باريس ١٩٤٧).

وقد طبق المستشرقون نفس المنهج النبدي التاريخي في الدراسات المذهبية بهدف إثبات عدم صحة الحديث. وقد غطت دراساتهم جميع مجالات الحديث والمرتبطة بعصطلحاته، وتطوره، ووضعه، ونقاذه، وتدوينه من وجهة النظر الاستشراقية، ومن أهم المستشرقين الذين تناولوا تطبيق منهج النقد التاريخي على الحديث النبوي جولد تسهير في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» وفي «دراسات محمدية»، و«مذاهب التفسير الإسلامي»، وكذلك المستشرق جوزيف شاخت في «المدخل إلى الفقه الإسلامي».

ولا يخفى أن الهدف من كل هذه الدراسات القرآنية والمذهبية عند المستشرقين زعزعة ثقة المسلمين في كتابهم المقدس وفي مصادر شريعتهم، وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي. ويمكن القول بكل تأكيد أن هذه الدراسات النقدية لم تتجمع في تحقيق هدفها ولم يكتب لها النجاح الذي شهدته دراسات نقد «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى، والتي حددت تحديداً نهائياً الوضع الإنساني لهذه

الكتب ، وحكمت على «الكتاب المقدس» بأنه كتاب إنساني ، وليس إلهي المصدر كما ادّعى الدوائر الدينية اليهودية والنصرانية . ويعود الفشل الاستشرافي في الوصول إلى نفس الحكم على القرآن الكريم إلى طبيعة القرآن الكريم المختلفة اختلافاً جذرياً عن طبيعة الكتب اليهودية والنصرانية . ونحن نعتبر هذا الفشل من جانب مدرسة النقد التاريخي وأتباعها من المستشرقين دليلاً يضاف إلى الأدلة الموروثة عن إعجاز القرآن الكريم وإثباتاً علمياً لإلهيّة مصدره ، والتي تثبتها خصائصه اللغوية والبلاغية ، ووحدته الموضوعية ، ومضمونه الدينييّة والأخلاقيّة ، وأياته الكوتية ، ومحاتوياته التشرعيّة والفقهيّة ، وروريته التاريخيّة والحضاريّة . وهذه جميعاً صفات ثقفتها مدرسة النقد التاريخي عن كتب العهد القديم والجديد ولا تتوفر في كتاب ديني مقدس سوى القرآن الكريم . ويعود هذا الوضع المخالص بالقرآن الكريم أولاً وقبل كل شيء إلى حفظ الله سبحانه وتعالى له من التحرير والتغفير والتبدل الذي أصاب الكتب الأخرى مصداقاً لقوله تعالى : «إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٥٨) هذا في الوقت الذي أشار فيه القرآن الكريم نفسه إلى حدوث التحرير والتبدل في الكتب اليهودية والنصرانية كما في قوله تعالى : «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرِوا بِهِ ثُمَّا قَلِيلًا». فـ«وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لِلَّهِ مَا يَكْسِبُونَ»^(٥٩) . وقوله تعالى : «فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ»^(٦٠) . وكذلك قوله تعالى : «يُحَرِّفُونَ الْكَلْمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»^(٦١) . ويُقر القرآن الكريم بأن الأصل في وجود الاختلاف هو المصدر الإنساني

وهو أمر ينطبق على كتب اليهود والنصارى. أما الكتاب الإلهى فلا سبيل لوجود الاختلاف فيه. وهو مبدأ قرآنى نقدى أقرته الآية القرآنية الكريمة : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (٦٢) .

ويأتى بعد عناية الله وحفظه لكتابه حرص المسلمين على كتابتهم الكريمة . فقد كانت الآيات القرآنية المؤكدة على تحريف بنى إسرائيل والنصارى لكتابهم بشابة تحذير شديد للمسلمين ، وإنذار متكرر من القرآن الكريم حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب . ولذلك بذل المسلمون جهوداً عظيمة فى حفظ آيات القرآن الكريم بعد تزولها على الرسول ﷺ مباشرة وتدعينها . وكان نقله بالتواتر وذلك «بان يتعلّقه الجمّع العظيم عن النبى ﷺ ثم ينقله جمّع عن هذا الجمّع . وهكذا حتى يصل إلينا كما نطق به النبى ﷺ من غير تحريف ولا تبدل ولا نقص ولا زيادة . والتقليل بهذه الطريقة هو السبيل الوحيد لصيانة القرآن وحفظه على الوجه الذى أنزل عليه . وقد كان تلقى الناس له بهذه الكيفية وحفظهم إياه فى صدورهم هو الأصل المحكم عند الاختلاف فى كتابة حرف أو كلمة منه ، وهو طريق حفظه الذى وعد الله به فى كتابه» (٦٣) .

هذا الواقع القرآنى فيما يتعلق بحفظه وتوارره لم يحدث بالنسبة لكتب اليهود والنصارى، هذا بالإضافة إلى أن رجال الدين فى اليهودية والنصرانية استأثروا بنصوص كتابهم ، ولم ينشروها بين الناس مما جعل إمكانية التغيير فيها بواسطة رجال الدين لا يمكن اكتشافها بواسطة جموع اليهود والنصارى الذين لا يملكون نسخاً من «الكتاب المقدس»

وذلك لتحرير شيوخه واستخدامه خارج دائرة رجال الكهنوت والقساوة. وإذا حدثت رغبة في التبديل باتفاق رجال الدين فلا يمكن معرفتها بواسطة جمهور اليهود والنصارى.

والحقيقة أن المسلمين في منتهى البؤنة فيما يتعلق بنص القرآن الكريم خشية أن تند إلية بد التبديل والتغيير وأصبح واجب المسلم قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة سليمة خالية من اللحن والخطأ ، كما أصبح واجبه أيضاً تصحيح خطأ الغير كالأمام في الصلاة أو غير ذلك وفي كل مناسبة تُعلى فيها آيات القرآن الكريم .

إن مهمة النقد التاريخي المناسبة لكتب اليهود والنصارى ليست لها قيمة تذكر فيما يتعلق بالقرآن الكريم رغم أهميتها العظمى في إظهار التحرير والتبديل في «الكتاب المقدس» اليهودي والنصراني . فالقرآن الكريم تم حفظه وجمعه وتدوينه في حياة الرسول ﷺ . ومن هذا المنطلق فالقرآن ليس له تاريخ بالمعنى الذي فهمه علما ، «نقد الكتاب المقدس» في دراستهم للعهد القديم والعهد الجديد حيث مرت نصوص العهدين بمرحلة تاريخية طويلة قبل تثبيت النص . وهي فترة تصل إلى ألف عام بالنسبة للعهد القديم وأربعة قرون بالنسبة للعهد الجديد . وهذا هو المقصود بعبارة «تاريخ النص» عند علما ، نقد «الكتاب المقدس» . وهي عبارة من الصعب تطبيقها على نص القرآن الكريم الذي حفظ وجُمع ودُونَ في فترة نزوله على الرسول ﷺ . ولم يمر براحل تطور وتحريف وتغيير تؤدي إلى تثبيت النص كما حدث لكتب اليهود والنصارى . وعبارة «تاريخ النص» تعنى المسافة التاريخية الفاصلة بين زمن نزول

النص وزمن تثبيت النص . وفي حالة التوراه مثلاً نجدها نزلت على موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد يعني أن تاريخ نص التوراه يغطي ما يقرب من تسعة قرون تقريباً تعرضاً فيها النص لكل أشكال التغيير والتبديل والتحريف .

أما بالنسبة للحديث النبوي فقد كان المسلمون على درجة كبيرة من الوعي النقدي إذ أنه بمجرد الإحساس بأن بعض الأحاديث الموضوعة قد تسررت إلى جسم الحديث النبوي بدأت أكبر عملية نقدية في تاريخ الفكر الإنساني تم على أثرها إخضاع الحديث لما حمل من النقد العلمي للتأكد من صحته وعودته إلى الرسول ﷺ . ولم يتضرر المسلمون حتى تظهر لهم مدرسة غريبة تندد لهم الحديث . فقد بذلوا جهوداً كبيرة لبيان الصحيح من الموضوع ، ونقدوا الحديث سندًا ومتنا ، وطوروا سُلُّا لتنقية الأحاديث النبوية والحصول عليها من مصادرها الأصلية كالرحلة في طلب الحديث ، وتتبع طرق تحمله وأدائه ، ونتج عن هذا كله تطور علوم نقدية امتدت لخدم علمًا آخر غير الحديث مثل علم التاريخ ، وعلم تاريخ الأديان . ومن أهم هذه العلوم النقدية علم المجرى والتعديل أو «علم الرجال». بل إن المنهج النقدي الذي طوره علم الحديث عند المسلمين امتدت آثاره إلى المنهج النقدي الغربي حيث استفادت مدرسة «نقد الكتاب المقدس» من النقد القرآني والنقد الإسلامي الذي طوره مؤرخو الأديان والفرق لليهودية والنصرانية ، كما استفادت أيضًا من منهج النقد عند المحدثين . وقد ذكرنا سابقاً اشتراك نفر من المستشرقين وعلى رأسهم يوليوب فلهاوزن في تأسيس مدرسة نقد الكتب اليهودية والنصرانية .

٤- التشكيك في أصالة الفكر الإسلامي:

وبالإضافة إلى التشكيك في صحة القرآن الكريم والحديث النبوى بما المستشرقون إلى إثارة الشك العام حول مصادر الفكر الإسلامي ، وردّ الثقافة الإسلامية إلى مصادر أجنبية يهودية ونصرانية : أو فارسية ، وهندية ، ويونانية ، ورومانية ، وسريانية . ولم يترك المستشرقون علمًا من العلوم الإسلامية إلا وردوه إلى مصدر أو عدة مصادر أجنبية . ففضلاً عن رد بعض موضوعات القرآن الكريم والحديث النبوى إلى مصادر يهودية ونصرانية بل وردّ معتقدات الدين الإسلامي إلى أصول أجنبية مختلفة - عدم المستشرقون إلى تشويه الفكر الإسلامي عامة من خلال التشكيك في مصادره الإسلامية والزعم بعودته إلى أصول أجنبية . وفيما يلى وصف سريع لهذه الفرية الاستشرافية من خلال عرض آراء المستشرقين في أصالة بعض العلوم الإسلامية .

أ- التشكيك في أصالة الشريعة والفقه :

تنطلق الدراسات الاستشرافية في الشريعة والفقه من منطلق أساسى هو عدم الاعتراف باستقلالية الشريعة الإسلامية ، والقول بمصادر أجنبية للشريعة والفقه . وقد مال المستشرقون اليهود بالذات إلى ادعا ، وجود تأثير شرعي يهودي على الإسلام ، والأخذ عن التشريعات والأحكام التوارتية . كما يدعى بعض المستشرقين أصلًا رومانياً للشريعة الإسلامية ، والقول بتأثير هذه الشريعة بالقانون الروماني وبغيره من القوانين الوضعية . ولاشك في أن منشأ هذه الشبهات الجهل بالشريعة

الإسلامية ، والخطأ في فهمها ، والأخذ ببدأ تأثير الشرائع الأقدم على الشريعة الأحدث في التاريخ ، وبدأ التأثير والتآثر وبالفصل بين الدين والدنيا . هذا فضلاً عن الرغبة المقصودة في تشويه الشريعة الإسلامية باعتبارها منافسة للشريعات الأخرى، وكجزء من عملية التشويه العام للإسلام التي بناها المستشرقون ^(٦٤) . ولأن الشريعة الإسلامية هي الأساس الذي تقوم عليه حياة المجتمع الإسلامي فالتشكيك فيها ومحاولة تشويه مصادرها وأصولها ينعكس على الحياة الإسلامية سلباً : وتؤثر بالتأكيد على وحدة الحياة الإسلامية، كما هو واضح في حياتنا المعاصرة من انقسام المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات تطبق الشريعة الإسلامية ومجتمعات لا تطبقها الأمر الذي أدى إلى تفتيت وحدة المسلمين . ولاشك في أن الاستشراق قد لعب دوراً هاماً في التقليل من شأن الشريعة الإسلامية ، ووصفها بالبسود وعدم الصلاحية ^(٦٥) . وكما أنه متى نظر إلى حد كبير عن انتشار العلمانية في البلاد الإسلامية والواقع تحت تأثير القوانين الوضعية الفرنسية وهو أحد الأهداف الاستشرافية الأساسية ^(٦٦) ، أما دعوى تأثير القانون الروماني على الشريعة الإسلامية فهي تقوم على دعامتين ضعيفتين : الأولى أن القانون السابق في التاريخ يؤثر على القانون اللاحق أو المتأخر ، والثانية أن هناك تشابهًا في بعض الأحكام التشريعية بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية .

ويعطى د. عبد الحميد متولى عدة أسباب أدت إلى اعتقاد المستشرقين في وقوع التشابه منها اعتقادهم في تقليد الحضارة الأدنى

للحضارة الأعلى في البلاد التي فتحها العرب : ومنها أيضًا الأخذ بالعرف المتأثر بالقانون الروماني وغير المتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية ، والاعتقاد الاستشرافي في أن بعض الفقهاء المسلمين تعلم في مدرسة بيروت الرومانية مثل الإمام الشافعى والإمام الأوزاعى ، وقول فريق آخر من المستشرقين بانتقال قواعد القانون الروماني إلى الفقه الإسلامي عن طريق التشريعات اليهودية المتأثرة بالقوانين الرومانية ، ورأى آخر يقول بانتقالها عن طريق مدرسة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي^(٦٧).

وقد انبرى عدد من العلماء المسلمين للرد على هذه الشبهة . ويع肯 تلخيص ردود المسلمين على شبهة التأثر بالقانون الروماني فيما يلى :

- ١ - عدم رُقى المتشابه إلى مرتبة القواعد الكلية .
- ٢ - إن إقرار بعض العادات ليس من باب التأثر وإنما هو اعتراض باتفاقها مع مبادئ الشريعة الإسلامية^(٦٨) .
- ٣ - تأثر القانون الروماني بالتشريعات اليهودية .
- ٤ - عدم وجود فقيه مسلم واحد من أصل يهودي .
- ٥ - عدم ترجمة كتب في القانون الروماني في عصر الترجمة^(٦٩) .
- ٦ - وقوع تأثير إسلامي في القوانين الغربية المستمدّة من القانون الروماني خاصة في القانون التجاري .
- ٧ - وجود مبادئ في القانون الروماني ليس لها مقابل في الشريعة مثل السلطة الأبوية ، والسيادة الزوجية ، والوصاية على المرأة ... الخ.

- ٨- وجود مبادئ في الشريعة الإسلامية ليس لها مقابل في القانون الروماني مثل نظام الحسبة ، والعقاب بالتعزير ، وعدم فصل القواعد القانونية عن القواعد الأخلاقية ، ونظرية الضرورة ، ونظرية إسامة استعمال الحق ، ومبدأ التزام المتعاقدين بناءً على الرضا أي سلطان الإرادة .
- ٩- عدم وجود ألفاظ قانونية رومانية في الشريعة الإسلامية واختلاف لغة الفقه^(٧٠) .
- ١- اختلاف مصادر القانون فالشريعة مصدرها الوحي والسنة بينما القانون الروماني مصدره العادات والأعراف مما يؤكد استقلال الشريعة الإسلامية في النشأة والتطور .
- ١١- تفوق الشريعة الإسلامية في عدد من المبادئ منها العدالة ، والمساواة بين الأفراد أمام القانون ، وقطع المرأة بوضع قانوني مستقل ، ومبدأ سلطان الإرادة ، ومبدأ عدم الفصل بين القواعد القانونية والأخلاقية .
- ١٢- اختلاف الشريعة الإسلامية عن القانون الروماني في العموم حيث تخاطب أحكام الشريعة المكلفين دون الاهتمام بتبيان لفهم وقسيماتهم وألوانهم أو أجناسهم ، وتختلف أيضًا في ثبات الأحكام الأساسية ، وفي الصفة الدينية التي لا توفر للقانون الروماني ، والاختلاف في الأحكام الخاصة بالعقود والأحوال الشخصية والمعاملات والالتزامات^(٧١) .

وبالإضافة إلى شبهة التأثر بالقانون الروماني لابد من إشارة سريعة إلى شبهة وصف الشريعة بالجمود وعدم الصلاحية وهي شبهة تعتمد على منطق استشرافي خاطئ يعتبر المثالية في الشريعة الإسلامية ثبات مبادئها ضرورة ضرورة الجمود وعدم الواقعية وبالتالي عدم الصلاحية للتطبيق .

ويرد الدكتور محمد سليم العوا على هذا الادعاء الاستشرافي في معرض نقاذه للمستشرق توبيل كولسون قائلاً : «المريح أن مثالية أحكام الشريعة الإسلامية ، لا تعنى عدم صلاحيتها للتطبيق بحال من الأحوال ، والواقع الذي مضى عليه العمل في العالم الإسلامي كله إلى دخول الاستعمار الغربي بلاد الإسلام ينقض هذه الدعوى ، والعمل المعايير الآن على قدم وساق في عدد من بلدان الإسلام للحكم بالشريعة الإسلامية ، وأصدار قوانين جديدة مستمدة من أحكامها مبنية على مدوناتها الفقهية ، واستمرار العمل بها حتى اليوم في المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول الإسلامية ينقضها كذلك »^(٧٢) . ويؤكد الدكتور العوا على أن المثالية تعنى «نزع الأحكام الشرعية الإسلامية بالإنسان إلى العلو فوق الشهوات والتزوات ، وتحكيم العقل والعدل بدلاً من تحكيم الهوى والغرض ويصف واقعية الأحكام التشريعية الإسلامية بأنها «تبعد في تحقيق مصالح الناس ورفع المحرج عنهم ، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الواجبات أو الأعمال . وقد تجلت هذه الواقعية في عشرات القواعد الفقهية بل مئاتها بما لا يدع مجالاً في إطار البحث العلمي المحايد لرمي هذا الفقه أو هذه الشريعة بعدم الواقعية التي تساوي عند أصحاب هذه التهمة عدم الصلاحية للتطبيق»^(٧٣) .

بــ التشكك في أصالة النحو العربي :

رد بعض المستشرقين النحو العربي إلى أصول يونانية أو سريانية أو هندية أو لاتينية ، فقد قال بالتأثير اليوناني على النحو العربي كل من المستشرق الفرنسي إرنست رينان E. Renan والمستشرق الألماني هوفمان G. Hoffmann وأميركس Marx والمستشرق الهولندي فيرستيج C. Versteegh ومن هؤلاء من قال بتأثير يوناني مباشر مثل نولدكه وفيرستيج وبعدهم قال بتأثير يوناني عن طريق اللغة السريانية . وقد ادعى فـ برستوريوس Praetorius وجود تأثير يوناني لاتيني مشترك على النحو العربي . وقد اعتقد هذا الفريق النادي بالتأثير الأجنبي على النحو العربي على فرضيات لا دليل عليها منها محاولة خلق علاقة تاريخية بين النحاة العرب والنحاة السريان مثل علاقة مفترضة بين أبي الأسود الدؤلي ويعقوب الرهاوي وافتراض علاقة بين حنين بن إسحاق والخليل بن أحمد . كما افترضوا دوراً للقرس في نقل المعرفة اليونانية إلى العرب مثل افتراض معرفة عبدالله بن المفع باليونانية ، وتأثيره في الخليل بن أحمد . ومن هذه الفرضيات أن مصطلحات الإعراب ، والصرف ، والقياس والحركة مصطلحات يونانية ؛ وأن تقسيم الكلام عند سيبويه تقسيم يوناني . وفي كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن الكريم كأحد العلوم التي نشأت عن القرآن الكريم ولضرورة إسلامية خالصة، ولأسباب وظروف داخلية . كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة في المصادر العربية في تاريخ النحو والتي تُقر بنشأته الداخلية . وقد ظهر من بين المستشرقين من اعترف بأصالة النحو

العربي، وأن صلته بالنحو اليوناني أو السريانى صلة متأخرة بعيدة عن فترة النشأة والتكون ، وهو جزء من تأثير عام على الثقافة الإسلامية حدث بعد عصر الترجمة عن علوم اليونان والسريان في العصر العباسي.

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي أو تروبو O. Troupeau الذي رفض التأثير المبكر لأنّه مبني على فرض تاريخية غير واقعية ومعتمد على تسلسل تاريخي مرفوض بمرور النحو بمرحلة يونانية وسريانية فمرحلة عربية، وأن التأثير اليوناني لا يتعذر استعارة بعض المصطلحات ، ورمى القائلين بالتأثير اليوناني بالتعصب العام للثقافة اليونانية ، ورد كل العلوم إليها ، وإنكار فضل الحضارات الأخرى خاصة الحضارات الشرقية القديمة ، والحضارة الإسلامية . وهو يرفض وقوع أي اتصال بين النحاة العرب والسريان قبل حركة الترجمة حيث لا يرد ذكر نحوئي سريانى واحد في الأخبار التاريخية النحوية العربية . كما أن المصادر العربية لاتشير إلى أي مؤثرات أجنبية فضلاً عن الإشارات الواردة عن كراهية النحاة العرب للمنطق اليونانى مثل تفرقة الزجاج بين طرق النحاة وطرق المناطقة، واتهام الرمانى النحوى بادخال أفكار فلسفية فى النحو ، والفرا ، بفلسفة نحوه وهجوم السيرافى على المناطقة^(٧٤) . ولم يكتفى تروبو بهذه الأدلة التاريخية بل أكد على اختلاف طبيعة المصطلحات النحوية العربية والمصطلحات اليونانية . وطور نظرية الأصل الفقهي لمصطلحات النحو العربي مشيراً إلى الاتصالات المستمرة بين النحاة والفقها ، ومعطياً أمثلة لنحاة تلذموا على فقهاء ، ونحاة متذمرين في الفقه والشريعة والحديث مثل عيسى بن عمر ، ونصر بن عاصم، وبهين

بن يعمر ، وحماد بن سلمة ، والنصر بن شمبل الذي عمل قاضياً فجمع بين علمي النحو والفقه . وأكد تروبو على ضرورة دراسة الخلفية الثقافية للنحاة العرب للتعرف على مصادر نحوهم^(٧٦) . وقد أعطى تروبو مجموعة مصطلحات نحوية مأخوذة عن الفقه الإسلامي مثل : بدل ، عوض ، شرط ، كلام ، حد ، حجة ، أصل ، دليل ، نية ، متزلة ، موضع ، قياس ، حسن ، قبيح . ويصفها بأنها مصطلحات وظيفية أي لها وظيفة داخل الكلام مما يشير إلى تأثير فقهي^(٧٧) .

ج- التشكيك في أصالة الأدب العربي

وفي مجال الأدب العربي ، شكل المستشرقون في أصالة الأدب «المجاہلی» وصحته من خلال نظرية الاتساع التي طورها عدد من المستشرقين من أهمهم تيودور نولذكه في بحث له بعنوان «من تاريخ نقد الشعر العربي القديم»^(٧٨) ويزعم فيه أن الاتساع المبكر من الشعر العربي القديم يُظهر في جوهره الأشكال الخارجية والداخلية التي يعكسها شعر صدر الإسلام حيث يوجد تشابه في البنية الفنية للقصيدة العربية بين القصيدة العربية القديمة والقصيدة العربية في صدر الإسلام . كما يزعم أن هناك تشابهًا في الموضوعات المكونة لضمون القصائد بحيث يمكن رد القصائد المجاهلية من حيث الوضع والتاليف إلى عصر صدر الإسلام بمعنى أن الشعراء الإسلاميين وضعوا قصائدهم على لسان الشعراء المجاهلين لينالوا القبول ويضمنوا لقصائدهم الانتشار . ويزعم نولذكه أيضًا أن قصائد عربية كثيرة وُضعت على الشكل المجاهلي للقصيدة لاستخدامها في أغراض مختلفة مثل الوعظ والمحاضرة

والفخر، وأن شعراً كثيراً أضيف إلى قصائد قديمة على وزنها وبعدها مما يشير الشك حول صحتها ويجعل من الصعب توثيقها . ومن مزاعم نولدكه أن المعلقات السبع ما هي إلا خرافات وليس لها وجود حقيقي والتسمية «معلقات» تسمية متأخرة ويشير الشك في القصائد ذاتها وفي أسمانها وشعاراتها^(٧٩). ومن مزاعمه أيضاً الادعاء بأنه لا يوجد بيت شعرى واحد موثق في صحته قبل عام ٥٠٠ ميلادية .

وقد سار على نهج نولدكه ونظريته هذه عدد من المستشرقين مثل المستشرق الوارد W. Ahlwardt في بحثه «ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة» حيث يربط فيه بين الخبر الأدبي والخبر التاريخي ويزعم أن الموقف من الشعر العربي القديم ما هو إلا جزء من الموقف من التاريخ العربي القديم كله . فكما أنه من الصعب عنده توثيق أخبار العرب قبل الإسلام واعطاً تصور تاريخي عن حياة العرب في الجاهلية فالأمر كذلك ينطبق على الشعر الجاهلي من حيث تأليفه ونسبته إلى ناظمه ، ويشكك الوارد كذلك في صحة الأنساب الواردة في المصادر العربية القديمة^(٨٠).

والسقط المستشرق صموئيل مرجلويث النظرية من زاوية التدوين فيدعى أن وسيلة العرب في تدوين شعرهم وسيلة بدائية تسهل بتسرب ودخول الاتصال . فالعرب لم يعتمدوا على الكتابة في تدوين الشعر بل اعتمدوا على الذاكرة والحفظ ، ويشكك في قيمة الحفظ وفي الرواية الشفهية ويعتبرها وسيلة غير دقيقة للتدوين ، ويرد إليها كل الاختلافات الخاصة برواية الشعر العربي القديم ، كما أنه شكك في

الرواة عامة ، ووصفهم بعدم الدقة ، وإدخال تفسيرات على القصيدة العربية . ويزعم مرجوليوث أيضاً صعوبة تصور وجود لغة مشتركة للعرب قبل الإسلام بدون بها الشعر العربي القديم . فالعرب اختلفوا في لهجاتهم ومع ذلك فقد أتى شعرهم في لغة واحدة وهذا يعني أن هذا الشعر تم وضعه بعد الإسلام . ويشير مسألة الاتصال متخدلاً من مسألة اللغة الواحدة للشعر أساساً للنظرية . ويربط بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم . ويعطي على هذا الأساس تاريخاً متأخراً للشعر الجاهلي ، كما يعتبر المضمنون في الشعر الجاهلي لا يعبر عن الحياة القديمة بل يعبر عن عصر متأخر طابعه إسلامي (٨١) .

وقد أثرت نظرية الاتصال كما طورها مرجوليوث على عدد من المختصين العرب في الأدب العربي القديم . وتنتمي معظمهم إلى المدرسة العربية النصرانية التي يتزعمها عدد من علماء النصارى العرب وأدبائهم مثل جسوس زيدان ، ولويس شيخو ، وأنيس فريحة ، وأنستاس الكرملي ، وفيليب حتى ، ولويس عوض وغيرهم . كما تبناها بعض علماء الأدب من العرب المسلمين ومن أبرزهم طه حسين الذي اهتم بتطبيق النظرية وشرحها في عمله المعروف «في الشعر الجاهلي - (١٩٢٦)» . وقد تبنت هذه المدرسة العربية الرؤية الاستشرافية للأدب العربي القديم مرددة نفس أدلة المستشرقين السابقة ، ومقلقة هذا كله في غلاف منهجه مستورد من الفكر الاستشرافي ، وفي ظل رؤية متأثرة بالاستشراف ونظرياته . ولاشك في أن أهداف هذه المدرسة العربية التقت وأهداف الاستشراف ، بل وساعدت كثيراً في نشر الفكر الاستشرافي

ونظراته خاصة فيما يتعلق بمسألة التشكيك في التراث العربي القديم ، وإثارة الشبهات حول أصالته ، وربط هذا كلّه بعملية التشكيك في التاريخ العربي القديم ومصادره الأساسية وعلى قمتها الشعر العربي القديم مصدر اعتزاز العرب وفخرهم وديوانهم ، والمصدر الأساسي لحياتهم قبل الإسلام . كما يرتبط التشكيك في أصالة الشعر العربي القديم بشبهة استشراقية أعظم وأخطر ، وهي وصف العقلية العربية قبل الإسلام بالجمود والتخلّف وعدم القدرة على التخييل والإبداع . وهي النظرة التي وضعها المستشرق الفرنسي إرنست رينان . والأخذ بالانتهاء معناه الحكم على العقلية العربية بأنّها عقلية خاوية لم تنتج أدبًا أو فكرًا يدلّ عليها بهدف تشويه صورة هذه العقلية ، وردّ إنتاجها الأدبي إلى عصور متأخرة أو نسبة جزء منه إلى يهود ونصارى شبه الجزيرة العربية ، كما فعلت المدرسة اليهودية والنصرانية في الاستشراق ، وكما فعل علماء النصارى العرب وأدباؤهم من خلال إبراز النتاج اليهودي النصراني على حساب النتاج الأدبي العربي الأصيل .

د. التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث :

لم يتوقف المستشرقون في هجومهم على اللغة العربية عند الشبهات التي أثارها حول أصالتها في التاريخ القديم وعصور العربية المختلفة ، ولكنّهم اتهموا العربية في العصر الحديث بأنّها لغة عاجزة عن الرفاه بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدّم العلمي والتكنولوجي ، ووصل بعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميّتة مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة . وبأنّها لغة

دينية بمعنى أنها تستخدم في المجال الديني وفيما يتعلق بالعبادة ولكنها لا تصلح كلفة للحديث والكتابة تشبهها لها بعض اللغات الدينية القديمة والتي انحصر مجال استخدامها في المجال الديني ، ولم يعد لها استخدام في الحياة اليومية مثل السريانية والسننكريتية وغيرها .

ووصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وأنها لغة بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث ، وأنها السبب في التخلف العلمي للمغرب في العصر الحالي كما أنها السبب في التخلف الحضاري لأنها غير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة . ويقابل هذا الزم في اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة ، ووصفها جميعاً بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المطالب الحديثة ، ومدحوها كوسيلة تشقيف للجماهير العربية للتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة اللغة العربية الفصحى^(٨٢) .

وبالإضافة إلى هذا كله اتهم المستشرقون الخط العربي بالصعوبة وعدم الصلاحية لاستقبال رموز ومصطلحات العلم الحديث ، واقتربوا علاجاً لهذه المشكلة بضرورة التخلص عن الخط العربي والأخذ بالخط اللاتيني وترك الأبيجدية العربية^(٨٣) .

وتتجاهل الدراسات الاستشراقية المعاصرة في أحكامها هذه على اللغة العربية التاريخ العلمي الطويل والمزدهر للغة العربية منذ ظهور الإسلام وحتى العصر الحديث . ففهمة الجمود لم تعرفها اللغة العربية فقد ظلت لغة التعبير العلمي في الحضارة الإسلامية باختلاف عصورها ، ولم يتوقف استخدامها كلفة علمية ، بل لقد حققت مكانة علمية لم

تصل إليها لغة إنسانية أخرى في التاريخ القديم والوسطى إلى أن أصبحت لغة العلم الوحيدة خلال العصور الوسطى (١٨٦)؛ الأمر الذي أجبر مستشرقى تلك الفترة على تعلمها من أجل اكتساب المعرفة العلمية التي استوعبتها ونقل هذه المعرفة إلى لغاتهم الأوروبية وهو وضع وصل باللغة العربية إلى العالمية . ويمكن تشبيه هذا الوضع آنذاك بوضع اللغة الإنجليزية في العصر الحديث كلغة علم عالمية . ولللغة العربية بريئة من تهمة الجمود والتخلف التي ألمتها بها المستشرقون . والعجز العلمي الذي يعاني منه العرب في العصر الحالي ليس سببه اللغة في حد ذاتها، ولكنه يعود إلى فشل المحدثين بها في تطوريها ، وتطورها للتعبير عن العلم الحديث . وهو عجز يُنسب إلى التخصصين في اللغة والمؤسسات العلمية المسئولة عنها . ومع ذلك هناك جهود علمية واضحة في مجال تعریف العلوم الحديثة ، وتطور المصطلح العلمي يظهر فيما صدر عن المجاميع اللغوية العربية من معاجم للشخصيات العلمية المختلفة ، كما يلاحظ النجاح في تدريس هذه التخصصات باللغة العربية في كثير من الجامعات العربية . صحيح أن المجهود المبذول مجهود بطيء نسبياً ، ولا يتناسب مع حركة تطور العلم الحديث ، ومع التطور التكنولوجي الهائل الذي يشهده عالمنا المعاصر . ولا بد من تضافر المجهود وتنسيقها في هذا المجال من أجل ملاحقة هذا التصور ، وعدم التخلف عن ركب العلم الحديث خاصة وأننا على مشارف القرن الحادى والعشرين ، والذي سيشهد ثورة علمية شاملة كما تشير القرائن إلى أن العالم في طريقه إلى استخدام نظم علمية جديدة ، ووسائل

علمية أكثر تطوراً بينما لا يزال يعيش عالمنا العربي والإسلامي على الأنظمة العلمية القديمة بوسائلها التقليدية .

ولاشك في أن الغرب قد تسبب أساساً في تخلف العرب والمسلمين في المجال العلمي وذلك من خلال استعماره للعالم العربي والإسلامي وتحكمه في وسائل التربية والتعليم، واحتكاره لـ تكنولوجيا العلم الحديث، ومنعه وصول التقنية الحديثة إلى العرب والمسلمين، فقد كانت نظرة الغرب إلى العلم ولا تزال نظرة استعمارية احتكارية اقتصادية هدفها تحقيق مصلحة الإنسان الغربي وسعادته في مقابل هلاك الإنسان الشرقي عامة ، واستغلال طاقاته وأمكانيات بلاده للرفع من شأن العلمي للغرب على حساب الشرق. والغرب هو المسؤول مستولية مباشرة عن التخلف العلمي لشعوب الشرق لاحتقاره المعرفة العلمية . والواجب على الشعوب العربية والإسلامية خاصة أن تبذل الجهد العلمي المطلوب لتابعة التطور العلمي ، ونقل العلم الحديث إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . وهي جميعاً لغات صاغة لاستقبال العلم الحديث واستيعابه كما ثبت من تاريخها العلمي في الماضي .

د- التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية :

من الآثار السلبية للاستشراق تشكيكه في قيمة الحضارة الإسلامية وفي أصالتها وإنكاره لفضلها على الحضارة الغربية . فقد اتجه بعض المستشرقين إلى إثارة الشبهات حول المزاجات الحضارية الإسلامية . ولأن هذه المزاجات حقيقة لا يمكن إنكارها لم يجد بعض المستشرقين الماقدرين

على الإسلام وال المسلمين سوى التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية ورد منجزاتها إلى مصادر أجنبية ، وللتفرقة بين المسلمين يردون معظم هذه المنجزات إلى المسلمين غير العرب بهدف التقليل من شأن الدور العربي في بناء الحضارة الإسلامية من ناحية ، وإثارة الصراع الحضاري والنزاعات القومية بين المسلمين .

وبالنسبة للتشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية فقد عكف فريق من المستشرقين على دراسة علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى ، والخروج بنتائج غير موضوعية ترد عناصر الحضارة الإسلامية ومنجزاتها إلى عدة شعوب وحضارات من بينها الحضارات الهندية ، واليونانية ، والسريانية ، بالإضافة إلى الحضارة الفربية الحديثة . ويستخدم هؤلاء المستشرقون من حركة الترجمة الإسلامية في العصر العباسي كدليل على اعتماد المسلمين على غيرهم وأنهم كانوا مجرد نقلة أو مترجمين للفكر العلمي عند الهند واليونان والسريان .

وتقوم هذه الشبهة الاستشرافية على مغالطة واضحة . فالشعوب تعتمد على بعضها البعض في الجانب المادي من الحضارة . وال المسلمين عندما اعتمدوا على علوم اليونان والهند وعلى التراث الحضاري المادي للشعوب الأخرى إنما فعلوا ما فعله غيرهم في الماضي قبل الإسلام ، وما فعله الأوروبيون أنفسهم في العصر الحديث . فالحضارة اليونانية القديمة استمدت العديد من جوانبها المادية من بلاد الشرق القديم وبخاصة مصر وبلاد النهرين والهند . والحضارة الفربية الحديثة اعتمدت هي الأخرى على علوم المسلمين فقاموا بترجمتها إلى اللاتينية ، وبنوا نهضتهم

المحدثة على أساس من النجزات العلمية لل المسلمين . والحقيقة الأخرى التي يتجاهلها المستشرقون هي أن دور المسلمين الحضاري لم يتوقف عند النقل والترجمة عن اليونان والهند والصين . فقد قام المسلمون بتحقيق التراث العلمي اليوناني والهندي وضبطه ، وتفسيره وشرحه ، وتصحيحه ، بالإضافة إليه إلى أن تمكن المسلمين من استيعاب هذه العلوم وتطوير العلوم الإسلامية التي كَوَّت الحضارة الإسلامية ، وجعلت منها الحضارة العالمية في العصر الوسيط ، وجعلت من اللغة العربية لغة العلم^(٨٦) .

وقد عمد بعض المستشرقين الذين يؤرخون لتاريخ العلم إلى تجاهل المرحلة الإسلامية في تاريخ العلوم . فتجدهم يقفزون من المرحلة اليونانية إلى المرحلة الأوروبية غير معتبرين بوجود مرحلة وسط بين المرحلتين ، ويدونها لا يمكن تصور قيام الحضارة الغربية الحديثة ألا وهي المرحلة الإسلامية ؛ وحتى يجدوا تاريخ العلم وكأنه تاريخ غربي خالص تعصبًا للإنسان الغربي وللحضارة الغربية مع ملاحظة إنكار وجود مرحلة علمية سابقة على المرحلة اليونانية ، وهي المرحلة الشرقية التي ساهمت فيها شعوب الشرق الأدنى القديم في وضع أسس العلوم التي نقلتها اليونان وينتسب إليها حضارته . ويجب أن نلاحظ هنا أن تاريخ العلم لم يكن حكراً لشعب بعينه ، وأن الحضارة المادية هي من نتاج البشرية بأكملها .

ويتجاهل المستشرقون أيضًا تفوق الحضارة الإسلامية ليس فقط في جانبها المادي ولكن أيضًا في جانبها القيمي ؛ ونقصد به ما وضعته الحضارة الإسلامية من قيم وضوابط للتحكم في النجزات المادية

للحضارة . وهى أمور لم تعرفها الحضارة الغربية بسبب نشأتها وتطورها فى ظل العداء للدين ما جعلها حضارة مادية خالصة لا ترتبط بقيم دينية أو أخلاقية . وقد كان لارتباط الحضارة الإسلامية بالدين الإسلامي الفضل فى اتصاف الحضارة الإسلامية بالعديد من المفاصص الذى لم تتوفر فى الحضارات الأخرى ، وبخاصة الحضارة الغربية . فالحضارة الإسلامية حضارة دينية إنسانية عالمية عقلانية أخلاقية^(٨٧) : وهى جمیعاً صفات اكتسبتها من طبيعة الدين الإسلامي وهو الدين الإلهي المصدر ، العالمي الاتجاه . والإنساني التوجه ، والذى لا يتعارض مع العقل السليم ، والأخلاقي النزعة .

أما الشبهة الاستشرافية التى ترد الفضل فى الحضارة الإسلامية إلى غير العرب من المسلمين فانها شبهة تهدف إلى تحجزة العالم الإسلامي وحضارته إلى عالم عربى وعالم غير عربى ، وإلى حضارة عربية وأخرى إسلامية غير عربية . كما تهدف الشبهة إلى التقليل من الشأن الحضاري للعرب ، وإثارة الأحقاد بين المسلم العربى والمسلم غير العربى .

وللرد على هذه الشبهة نقول إن مصدر الحضارة الإسلامية - كما ذكرنا - هو الدين الإسلامي . ولذلك فمتجازات الحضارة الإسلامية لاتناسب - ولا يجب أن تنسب - إلى شعب مسلم دون غيره خاصة وأن الاستشراق يسعى إلى تأكيد الاختلاف الحضارى بين المسلمين من خلال دعوى تنوع الحضارة الإسلامية إلى الحد الذى يمكن معه عزل حضارة كل شعب مسلم عن حضارة الشعوب الإسلامية الأخرى . وهى دعوى حاقدة لتأكيد القوميات وإثارة الصراعات على المستوى الحضارى بين الشعوب

الإسلامية . فالحضارة الإسلامية واحدة ، ومصدرها واحد ، ولا يمكن تجزئتها إلى عدة حضارات متباعدة . ومبداً الأخوة الإسلامية والأمة الإسلامية الواحدة يجعل الفضل في منجزات الحضارة الإسلامية يُنسب إلى الإنسان المسلم عامة ، ويهدف إلى تحقيق سعادة الأمة الإسلامية عامة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولم يحدث أن احتكر شعب مسلم منجزاً حضارياً ومنعه عن بقية المسلمين . فسياسة احتكار المنجزات الحضارية ومنعها عن الآخرين سياسة غريبة لم تعرفها الحضارة الإسلامية في تاريخها الطویل . ونذكر أصحاب هذه الشبهة من المستشرقين أن الفضل في الإسلام وحضارته يقوم على أساس من التقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير »^(٨٨) وأن هدف الإسلام إقامة حضارة إنسانية عالمية ولم يكن هدفه أبداً إقامة حضارة على أساس عرقية عربية ، أو غير عربية فالإسلام ليس - كما يدعى المستشرقون - ديناً عربياً ، وكذلك حضارته منسوبة إلى المسلمين جميعاً وليس منسوبة إلى شعب مسلم دون غيره .

وأخيراً نرى في الدليل الاستشرافي على أن الحضارة الإسلامية من صنع المسلمين غير العرب حجة على المستشرقين أنفسهم فإسهام غير العرب من المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية يُعد من مآثر الإسلام كدين ، وهو دليل قوى على أن حضارة الإسلام احتوت المسلمين جميعاً في بوتقة واحدة ، وجعلت منهم أمة واحدة . وفي ذلك أيضاً ردًّا على شبهة استشرافية أخرى وهي شبهة انتشار الإسلام بحد السيف ، فلو

كان الأمر كذلك ما حدث هذا الاندماج الشام والتعمق الحضاري الذي مكن غير العرب من المسلمين من تحقيق هذه المنجزات الحضارية ، والإسهام بفعالية في بناء الحضارة الإسلامية . وفي هذا أيضاً يتجاهل المستشرقون حقيقة هامة وهي أن عدد المسلمين من غير العرب قد يصل إلى عشرة أضعاف عدد المسلمين العرب . ولذلك فمن الطبيعي أن تكون المشاركة الحضارية للمسلمين غير العرب والمنجزات الناجمة عنها أكبر بكثير من حجم المشاركة العربية في بناء الحضارة الإسلامية مع التأكيد في نفس الوقت على أن الناتج الحضاري منسوب إلى المسلمين جميعاً .

الفصل السابع

الأثار الفكرية الإيجابية للاستشراق

لأشك في أن معظم الآثار الفكرية للاستشراق في المجتمعات الإسلامية آثار سلبية جعلت المسلمين ينظرون إلى الاستشراق على أنه يمثل حركة فكرية غربية مضادة للإسلام والمجتمعات الإسلامية . وهي نظرة حقيقية مبنية على أساس حقيقي من تاريخ ارتباط الاستشراق بالاستعمار والتنصير ، واستغلاله من قبل هاتين القوتين لتحقيق الأهداف الاستعمارية والتنصيرية في المجتمعات الإسلامية .

وأعتقد أنه مع زوال الاستعمار في شكله التقليدي ، ومع استقلال الاستشراق عن التنصير - حيث أصبحت للتنصير مؤساته ومراركه الخاصة به وارتباطه العضوي بالكنيسة - يمكن أن تكون تصوراً أكثر موضوعية تجاه الاستشراق . ولازعم هنا أن الاستشراق قد تخلى تماماً عن الأهداف السياسية والدينية ، ولكن في حالات استقلاله عن الارتباط بالدولة والكنيسة يمكن أن نرى فيه بعض الجوانب الإيجابية التي أفادت المسلمين دون قصد : أي دون أن يكون تحقيق الفائدة الإسلامية من مقاصد الاستشراق أصلاً . ولتكوين صورة إيجابية عن الاستشراق لابد من إجراء عدة عمليات فكرية على الظاهرة الاستشرافية من أهمها :

- ١- عزل الاستشراق عن القوتين المستغلتين له وهما الاستعمار والتنصير .

- ٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق لأنها نظرة جزئية لا تكتفى الاستشراق في شموليته ولكنها تنظر إليه في إطار ضيق محدود بالتراث الاستشرافي في الدراسات العربية والإسلامية .
- ٣- النظر إلى تأثير الاستشراق في الفكر الغربي وهو جانب مهم في دراسات المسلمين عن الاستشراق ويمثل عنصراً إيجابياً بالنسبة لموقف المسلمين من التراث الفكري الغربي .
- ٤- تأثير الإسلام في المستشرقين :

١- عزل الاستشراق عن الاستعمار والتنصير :

وبالنسبة للمعملية الأولى وهي عزل الفكر الاستشرافي عن الرؤية الاستعمارية والتنصيرية المستغلة له عبر المصادر فهي تتركنا مع كم هائل من الاتساع الفكري للمستشرقين ، وتراث استشرافي ضخم من المعرفة الإسلامية ، منها ما يغلب عليه الجانب الوصفي ، ومنها ما يغلب عليه الجانب القيمي المفعم بالأحكام الاستشرافية على الفكر الإسلامي ، ومنها أيضاً ما يختلط فيه الوصف بالحكم والتقييم . ومن الواجب علينا إسلامياً أن نهتم بهذه الجوانب المختلفة ونستفيد منهافائدة علمية التي تزيد من معرفتنا بالفكر الإسلامي . فالجانب الوصفي في الدراسات الاستشرافية أقرب ما يكون إلى الموضوعية العلمية ، ويزخر بالمعلومات التي تكشف الضوء عن العديد من مجالات الفكر الإسلامي توصل إليها المستشرقون من خلال مناهج ووسائل علمية ربما لم تكن متاحة للعلماء المسلمين في القرون الثلاثة الأخيرة بسبب التخلف العلمي

العام الذي تسبّب فيه الاستعمار . أما الأعمال الاستشرافية التي غلب عليها إصدار الأحكام على الفكر الإسلامي فهي من ناحية تحتوى على جانب وصفى يقدم به المستشرق الموضع المدروس قبل أن يقيمه ويحكم عليه . وتحتوى من ناحية أخرى على أحكام بعضها علمى ، وأغلبها غير موضوعي تظهر فيه رغبة المستشرق في التشويه ، وإثارة الشبهات ، والتشكيك وغير ذلك من الأهداف الاستشرافية ، ومن بينها الهدف الدافع عن المعتقد اليهوديًا كان أو نصرانيًا ، وعن المذهب الذي يمثل خلفية المستشرق . وبالنسبة لهذه النوعية من الأعمال فالواجب تجاهها ينحصر في جانبين : الأول عزل المادة الوصفية والاستفادة منها ، والرّد عليها وتقديم التصور الإسلامي السليم لها . وهي عملية تصصيلية يقوم بها العالم المسلم فيصحح الشبهات والمعلومات الخاطئة من خلال مقابلتها بالأصول الإسلامية في مصادرها الصحيحة الموثوقة ، وحصر أخطاء المستشرق المقصود منها وغير المقصود .

٢ - توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق

وفيما يتعلق بتوسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق حتى تتمكن من التعرف على بعض إيجابياته المهمّلة أو غير المعروفة ، فنقصد بها في المقام الأول أن نظرة المسلمين إلى الاستشراق نظرية جزئية لا ترى الاستشراق في شموليته كحركة فكرية غربية عامة مهتمة بالشرق ككل ، وليس بالشرق المسلم فقط . وتقييم العمل الاستشرافي من جانبنا كمسلمين يجب أن يتم في ضوء المعايير الشاملة للفكر الاستشرافي . بل ويجب أن تتقدّم وتدرس موقف الشعوب الشرقية غير الإسلامية من

دراسات المستشرقين لنتفهق منها في تكوين موقف إسلامي. ولا يخفى على الدارسين أن حجم الأعمال الاستشرافية المرتبطة بشعوب الشرق غير الإسلامية كالهند والصين واليابان وإفريقيا يعتبر أضعاف ما كتبه المستشرقون عن الشعوب الإسلامية وفي هذه المعرفة الاستشرافية بالشعوب الشرقية غير الإسلامية قوائد عظيمة لل المسلمين . فهذه الشعوب المجاورة للعالم الإسلامي في شرقه وجنوبه وشماله تهم العالم الإسلامي فهي مجاله الدعوي ، وامتداده الطبيعي ، وسوقه الاقتصادي، وساحته الفكرية الحقيقة. رأسمية هذا الجزء من العالم الشرقي للمسلمين تفوق بمراتل أهميته بالنسبة للغرب. وقد وقف العالم الإسلامي طوال تاريخه كحاجز دون امتداد النفوذ الغربي إلى هذا الشرق غير المسلمين إذ كان على الغرب أن يعبر الأرض المسلمة لكن يصل إلى الشرق الأقصى. ولم يتمكن الغرب من ذلك إلا في التاريخ الحديث مع ضعف المسلمين ووقعهم هم أنفسهم تحت السيطرة الاستعمارية الغربية .

ورغم هذه الأهمية فإن المسلمين لم يهتموا كثيراً - خاصة في تاريخهم الحديث - بدراسة هذه الشعوب الشرقية غير المسلمة. ومعرفة أوضاعها الدينية ، والفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية للاستفادة من هذا كله في تحقيق الأهداف الإسلامية في هذه المناطق . وما لا شك فيه أن الاستشراق قد سدَّ هذا الفراغ العلمي بتغطية علمية شاملة ، ودراسة مستفيضة مستفيضة لتاريخ وجغرافية الشرق الأقصى وإفريقيا ، وللغات هذه المناطق وحضاراتها ، ودياناتها ، وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويمكن الاستفادة إسلامياً من هذه

المعرفة التي قدمها الاستشراق عن هذه الشعوب في تحقيق مصالح المسلمين . وهذا النوع من المعرفة مهم بالنسبة للداعية المسلم الذي يجب عليه معرفة أحوال من يدعوهم إلى الإسلام وأوضاعهم الدينية والاجتماعية حتى يتتمكن من دعوتهم على أساس علمية واضحة . وتهمنه أيضاً معرفة لغاتهم وتاريخهم وجغرافية بلادهم ، وغير ذلك من المعلومات الضرورية للداعية . كما أن هذه المعرفة تهم وأضمن السياسات الإسلامية في مصر الحديث ، خاصة وأن بعض بلاد الشرق الأقصى أصبحت بالفعل قوى عالمية مؤثرة في السياسة العالمية ، وفي الاقتصاد العالمي . ومن الضروري التعرف عليها عن كثب لبناء استراتيجية إسلامية شاملة تجاهها لأهميتها السياسية والاقتصادية في عالم اليوم والغد ، ولكل نتمكن من منافسة الغرب بل ووقف زحفه السياسي والفكري إلى الشعوب الشرقية ، ومواجهة الجهود التنصيرية الهائلة في هذه المناطق التي يجب أن تكون إسلامية فهي المجال الدعوي الحيوي بالنسبة للمسلمين .

٣- تأثير الفكر الاستشرافي في الغرب :

ومن الإيجابيات الاستشرافية غير المدرosa والمهمة إسلامياً التعرف على تأثير الفكر الاستشرافي في الفكر الغربي . فلقد اشغلنا بتأثير الاستشراق على الفكر الإسلامي وهو أمر مهم وخطير ، ولكن لم نهتم بمعرفة تأثيره في الفكر الغربي . وهو مفید وإيجابي من عدة وجوه . أولها معرفة حجم التأثير الإسلامي في الفكر الغربي . فالمعرفة الإسلامية التي نقلها الاستشراق إلى الغرب كان لها دور كبير في تطوير الفكر

الغربي ببل وتعديل مسیرته فی بعض الأحيان . فقد أدت الأعمال الإسلامية العلمية التي ترجمها المستشرقون قبل عصر النهضة الأوروبية إلى تطوير العلم الغربي ، وإدخال الغرب في مرحلة النهضة العلمية والتقى الصناعي والتكنولوجي الذي لا يزال يعيش الغرب حالياً . وتوضح هذه الأعمال فضل المسلمين على أوروبا وحضارتها ونهضتها . والأمر الثاني أن الترجمة التي قام بها المستشرقون للفكر الديني الإسلامي وبحوثهم في مجالاته المختلفة أدت إلى تطور الفكر الديني اليهودي والنصراني . ففضلاً عن الاستفادة العقدية في مجال بناء العقيدة ، وتنظيمها ، وإصلاحها استفاد الغرب من المسلمين في مجال النقد الديني . فقد أعادت اليهودية والنصرانية النظر في الاعتقادات الخاصة بهما في ضوء النقد الإسلامي لها . وكانت الإصلاحات الدينية ردود فعل حقيقة تجاه هذا النقد الإسلامي . ففي اليهودية لمجد الإصلاحات القرآنية والسامية وردود الفعل اليهودية الأرثوذك司ية تعكس تأثيراً إسلامياً حقيقياً . وفي النصرانية كان ظهور المذهب الإصلاحي البروتستانتي المعارض للكاثوليكية يعكس آثاراً إسلامية واضحة في بنود الإصلاح الأساسية . وبالإضافة إلى هذا كله نشأت حركة نقد « الكتاب المقدس » Biblical Criticism مستمدّة الكثير من نظرياتها في الكتب اليهودية والنصرانية من النقد القرآني والنقد الإسلامي لهذه الكتب في أعمال المسلمين التي ترجمها المستشرقون منذ وقت مبكر إلى اللغة اللاتينية وإلى اللغات الأوروبية الحديثة .

ويعتبر الاستشراق ، أيضاً ، مسؤولاً عن إدخال الموضوع الشرقي في

الأدب الغربي وفي الفنون الغربية المختلفة . فالأعمال الأدبية والفنية الإسلامية التي ترجمها المستشرقون إلى اللغات الأوروبية تركت أثراً واضحاً على الأدباء والفنانين الذين انبهروا بالموضوعات الأدبية والفنية الشرقية (١٨٩)، وزاوجوا بينها وبين الموضع الغربي في أعمالهم وقد كان لـ «ألف ليلة وليلة» وغسيرها من أشكال القصص الشعبى الشرقي وقصص الحيوان في «كليلة ودمنة» أثر واضح في الأدب الغربي .

كل هذه التأثيرات التي ذكرناها مختصرة . هي نتيجة لقيام المستشرقين بترجمة الأعمال الإسلامية المختلفة ، والبحث فيها ، ونشرها في بيئتهم الأمر الذي ساعد على التعريف بالإسلام وحضارته من ناحية ، وإثراء الفكر الغربي بمنقده ، وتصحيحه ؛ وهذه بموضوعات جديدة وأشكال أدبية وفنية لم يعهد لها مكنته من تطوير آدابه وفنونه وإثرانها .

٤- تأثير الإسلام في المستشرقين :

وقع العديد من المستشرقين تحت تأثير الفكر الإسلامي الدارسين له . وبعد هذا من الإيجابيات الهامة للاستشراق ، وشهادة استشرافية على سلامة الفكر الإسلامي وصحته ، وقدرته على التغلغل في نفوس الدارسين له من غير أتباعه . وقد حصل هذا التأثير في نفوس بعض المستشرقين إلى الحد الذي هجروا فيه معتقدهم ، وأعلنوا الدخول في الإسلام . والأمثلة على هذا كثيرة نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - المستشرق الفرنسي إتيين دينيه (١٨٦١-١٩٢٩) ، والمستشرق النمساوي ليوبولد فايس المعروف في الإسلام باسم محمد أسد والذي أعلن إسلامه عام ١٩٢٧م ، والمستشرق الإنجليزي وليم

بكسل (١٨٧٥-١٩٣٦) الذي أسلم عام ١٩٢٢ وترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية ، والمستشار الفرنسي فنساي مونتاي الذي أسلم عام ١٩٧٧ م وتسمى بالنصر بالله الشافعى (١٩٠١) ، والمستشار الجامايكي دوجلاس أرثر وأستاذ علم النفس بأمريكا ، وقد تسمى بعد الله آرثر ، والدكتور أرثر كين المتخصص في الفلسفة وعلم النفس والذي أسلم عام ١٩٦١ م ، والمستشار الفرنسي روجيه جارودى الذى أسلم فى السبعينات وتسمى رجاء جارودى ، ومريم جميلة ، والمستشار الإنجليزى ج. ل . بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧) ، والمستشار فريتس كرنكوف (١٨٧٢-١٩٥٣) وتسمى باسم محمد سالم الكرنكوى ، والمستشار الإنجليزى هـ. س فيلي (١٨٨٥-١٩٦٠) ، والمستشار الفرنسي سوريس بوکاى (١٩١١).

أما قائمة المعجبين بالإسلام والمعاطفين معه من المستشرقين فكبيرة ويصعب حصرها ونذكر منهم جورج سيل (١٧٣٦-١٦٩٧) والذي وصف بأنه نصف مسلم ، والمستشار الألماني ج. ج. رايسل (١٧١٦-١٧٧٤) ، وادوارد لين (١٨١٨-١٨٧٦) وويفلارد بلنت (١٨٤٠-١٧٧٧) ، وادوارد براون (١٨٦٢-١٩٢٦) ، والسيير توماس أرتولد (١٩٢٢-١٨٦٤) والمستشار ر. ف . بودلى ، والسيير هاملتون جب (١٨٩٥-١٩٧١) (١٩٢).

٥- إيجابيات أخرى

وبالإضافة إلى العناصر السابقة التي وضحت بعض إيجابيات الاستشراق هناك بعض الآثار الإيجابية الأخرى والتي تلخصها فيما يلى:

- ١- جهود المستشرقين في تحقيق التراث الإسلامي والكشف عن الكثير من المخطوطات الإسلامية ، وتحقيقها ، نشرها ، وترجمة بعضها ، وعمل الفهارس لها ، وحفظ المتهالك منها وترميمه ، وتصنيف المعاجم اللغوية في لغات الشعوب الإسلامية ، وهي جمیعاً أعمال ذات قيمة علمية كبيرة وساعدت في إحداث النهضة العلمية الحديثة في العالم الإسلامي .
- ٢- ساعد المستشرقون في تطوير منهج نقدى للبحث في التراث الإسلامي نتج عنه إيقاظ الوعي المنهجي لدى المسلمين الذين دفعهم هذا إلى النظر في الأصول المنهجية والمبادئ البحثية في الكتابات الإسلامية الأولى من أجل تأصيل منهج إسلامي ينافس المنهج الاستشراقي . وقد ساعد هذا الاهتمام المنهجي في الوصول إلى معرفة إسلامية جديدة وقراءة التراث الإسلامي قراءة تحليلية نافعة .
- ٣- للاستشراق دوره في تحديد مكانة التراث الإسلامي بين تراث الشعوب الأخرى ، وذلك لاهتمامهم بالمنهج المقارن بين الإسلام والأديان الأخرى وبخاصة اليهودية والنصرانية . كما ساعدوا على تحديد مكانة الفكر الإسلامي العالمية كفكر عالمي منافس للحضارات والثقافات الأخرى ، وبيّنوا أيضاً فضل الحضارة الإسلامية على الحضارات الأخرى .
- ٤- ساعد الاستشراق في تعريف الغرب بالإسلام وحضارته وبالتراث العلمي للمسلمين من خلال ترجمة مئات الأعمال الإسلامية الهامة إلى اللغات الأوروبية ، خاصة وأن المسلمين لم يهتموا بترجمة تراثهم وتعريف الآخرين به ، وتركوا مهمة الترجمة للمستشرقين .

٥- اهتم الاستشراق بدراسة واقع العالم الإسلامي بما شجع المسلمين على دراسة أوضاعهم بأنفسهم ، والاهتمام بواقعهم ، وحل المشاكل المختلفة التي تواجههم . وقد وجد الاستشراق أنظار المسلمين إلى مواطن الضعف والقصور في حياتهم ومجتمعاتهم من خلال الدراسات الاستشرافية التحليلية للمجتمعات الإسلامية ، وللحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة : الأمر الذي دفع العلماء المسلمين إلى محاولة بذرة فكر إسلامي أصيل ومعاصر للرد على آراء المستشرقين ولعلاج مشاكل مجتمعاتهم المعاصرة .

٦- دفع الاستشراق المسلمين إلى ضرورة تطوير نظمتهم التعليمي والعلمي مما أدى إلى ظهور نظم تعليمية وتربيوية جديدة تعتمد على الوسائل العلمية الحديثة في الكشف عن الفكر الإسلامي وتفسيره وتدرسيه . وأصبحت الجامعات الإسلامية تتساوى في مناهجها وأساليبها العلمية مع الجامعات الغربية دون أن تضحي بشخصيتها الإسلامية وقيمتها الدينية : بل وسعت جاهدة إلى تأصيل العلوم وربطها بالتراث الإسلامي ، وتوجيهها إسلامياً^(٩٣).

الخاتمة

سبل مواجهة الفكر الاستشرافي

١- حقائق المواجهة :

إن تكوين موقف إسلامي من الاستشراف وأثاره في المجتمعات الإسلامية يجب أن يتم في ضوء الحقائق التالية :

أولاً : أن الاستشراف ظاهرة فكرية قديمة ، باقية ومستمرة طالما أن الصراع بين الغرب والشرق باق على مستوياته الدينية والسياسية والفكرية . وفي ضوء هذه الحقيقة يجب على المسلمين أن يتعاملوا مع الاستشراف في واقعية تامة ، وينفس فعالية الاستشراف وдинاميكيته دون الاستغراب في الآمال الخيالية التي يشير أصحابها إلى إمكانية القضاء المبرم على الاستشراف ومخاطره . إن المواجهة الإسلامية مع الاستشراف يجب أن تستند إلى العقل ولا تتجنح إلى العاطفة المولدة للأمال المستحيلة التحقيق . فضلاً عن أن الاستشراف حركة فكرية عقلية تواجه بالفكر والعقل الذي يدعمه الإيمان الصادق بالدين والشقة في قدرة الإسلام على المواجهة .

ثانياً : أن الاستشراف قوة فكرية هائلة تتحمّل تنفذه كبيرة في الغرب ، وتدعّمها الحكومات الفرنسية والقوى الدينية اليهودية والنصرانية . ومواجهة مثل هذه القوة المدعومة دينياً وسياسياً لا يمكن أن تتم إلا من خلال قوة متساوية لها في التنفيذ والدعم . ومثل هذه القوة الإسلامية

ليس لها وجود حالياً إذ لا توجد حركة فكرية إسلامية أو مؤسسة إسلامية تستمتع بالنفوذ والقوة التي تملكها الحركة الاستشرافية . ولذلك سيطُول الصراع مع الاستشراف ، وستستمر الآثار الفكرية الاستشرافية في المجتمعات الإسلامية إلى أن تنشأ وتعظُّر حركة فكرية إسلامية مضادة للاستشراف .

ثالثاً : أن الموقف الإسلامي من الاستشراف يجب أن يتحدد في ضوء سلبيات الاستشراف وإيجابياته : بمعنى أن المواجهة الفكرية للاستشراف يجب أن تركز على السلبيات ، وتستفيد من الإيجابيات . وبهذا نضمن للمواجهة موضوعيتها ، ويعدها عن التعامل العاطفي والعشوائي مع الظاهرة الاستشرافية ، وكذلك نخلصها من العمومية التي تعانى منها دراسات المسلمين عن الاستشراف . وفي هذه المواجهة الفكرية لابد من التعامل مع المستشرقين كل على حدة ، فلا تجتمعهم جميعاً في قارب واحد ، ونوجه لهم جميعاً نفس الاتهامات . فالمستشرقون متقسمون على أنفسهم ، ومواقفهم ليست واحدة ، والآراءاتهم متغيرة ، ومنابعهم الثقافية متنوعة ومختلفة . ولذلك فالتعامل العلمي السليم معهم يتم من خلال فحص آراء كل مستشرق على حدة؛ وتكوين موقف منه مبني على أساس من أعماله العلمية ، وموافقه السياسية والدينية وتطورات هذه المواقف في مسيرته العلمية .

رابعاً : أن الفكر الاستشرافي يمثل كل المذاهب والأيديولوجيات المضادة للإسلام . كما أنه يمثل في المقام الأول الفكر الديني الغربي بمدرستيه اليهودية والنصرانية . وهذا يعني أن الفكر الاستشرافي قد احتوى بين

جنباته على كل الرؤى الدينية والفكرية المعادية للإسلام . وتعتمد المذاهب الدينية والفكرية اعتماداً كلياً على المستشرقين في تصدير أفكارها إلى الشرق ، وفي وضع الصياغة المناسبة لهذه المذاهب حسب ظروف وأوضاع كل شعب شرقي على حدة . ولذلك نرى أن أي مجهد يبذل إسلامياً في مقاومة الشيوعية ، والاشتراكية ، والرأسمالية ، والعلمانية ، والمادية ، والليبرالية - بمعناها الغربي - وغيرها من المذاهب .. هو مجهد مفید في مواجهة الآثار الاستشرافية لأنها آثار متعددة وناتجة عن اختلاف انتشامات المستشرقين الأيدلوجية .

٢- سبل مواجهة الاستشراق :

أما سُبُل مواجهة الآثار الفكرية الاستشرافية في المجتمعات الإسلامية^(٩٥) فهي متعددة نذكر منها ما يلى :

أولاً : الدراسة العلمية الراهنة المتعمقة للاستشراق . فعلى الرغم من قدم الظاهرة الاستشرافية وعظمتها خطورتها لازالت المواجهة العلمية الإسلامية لها ضعيفة ولا ترقى إلى مستوى الفكر الاستشرافي . والسبب الرئيسي في هذا الضعف عدم وجود أقسام علمية متخصصة في الدراسات الاستشرافية في الجامعات الإسلامية ، وعدم وجود مراكز بحوث إسلامية متخصصة في الاستشراق تتبع أعماله ، وتناولها بالبحث ، والتحليل ، والنقد ، والترجمة . وتعتبر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة حيث تنبهت منذ زمن إلى هذا الأمر فأنشأت قسماً علمياً أكاديمياً للاستشراق في كلية الدعوة بالمدينة المنورة ، ومركزاً للدراسات الاستشرافية والحضارية في نفس

الكلية ، بالإضافة إلى وحدة للبحوث الاستشارافية في عمادة البحث العلمي بالرياض . وبهذا جمعت الجامعة بين الاهتمام بالتدريس والبحث في مجال الاستشراق . وهو أمر يجب أن تحتذى به كل الجامعات الإسلامية من أجل تكوين قاعدة من العلماء المسلمين المؤهلين دينياً وعلمياً لمواجهة الاستشراق . ولذلك نوصي هنا بضرورة أن تتبني رابطة الجامعات الإسلامية فكرة إنشاء أقسام للدراسات الاستشارافية والتنصيرية وتعيمها في كل جامعات العالم الإسلامي . فهذه خطوة أساسية في مواجهة الفكر الاستشرافي الذي يواجهنا بثبات من أقسام الاستشراق ومراكز البحوث المتخصصة والتي يعمل بها جيش من المستشرقين ، ويبلغ عمر بعضها مئات السنين .

ثانياً : مطالبة الإنسان المسلم عامة ، والمشف خاص ، بضرورة العودة إلى الدين ، والتمسك بتعاليمه ومبادئه ، وأدائه الفروض والواجبات الدينية المطلوبة منه ، وتشريف نفسه دينياً ، والتغفه في أمور الدين . ففي هذا كله يتحقق تحصين الإنسان المسلم ضد الآراء المنحرفة التي ينشرها الاستشراق والتنصير . وفي هذا أيضاً تحصين للمجتمعات الإسلامية ضد الغزو الفكري الاستشرافي .

ثالثاً : مطالبة الحكومات والمؤسسات الإسلامية القادرة بضرورة التحكم فيما تبشه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من مواد فكرية متنوعة معادية للفكر الإسلامي ومساعدة على تسرب الفكر الغربي المنحرف إلى المجتمعات الإسلامية . ومطالبة الجهات الإعلامية المختلفة ، وبخاصة الصحافة ، بضرورة وضع رقابة صارمة على ما ينشر في الجرائد

اليومية من أفكار استشراقية . ونذكر في هذا المخصوص بدور الصحافة العربية غير المسئولة في استخدام ونشر بعض المصطلحات الاستشراقية دونوعي ومعرفة بدلالة هذه المصطلحات . ونضرب مثلاً بمصطلح «الأصولية» الذي ذاع وانتشر استخدامه المغلوط في وسائل الإعلام العربية والإسلامية مما أحدث نوعاً من الخلط والغموض والتشويه للمصطلح الإسلامي الصحيح . وساد استخدام المصطلح بدلالة الاستشراقية على «الإرهاب الديني» و«التزمت» و«المجرد» و«التخلف» ، وغير ذلك من المعانى التي أصبتها الاستشراق بالمصطلح الإسلامي .

رابعاً : تنقية الفكر الإسلامي من الأفكار المشبوهة والمشوهة التي دخلته عبر السنين بفعل الفرق والحركات الضالة ، ويفعل الاستشراق والتنصير . ويتطبق الأمر مراجعة مصادر التراث الإسلامي في كل الحالات لتنقيتها ، وتخليصها من كل الأفكار غير الإسلامية ومواطن الضعف التي كثيراً ما يعتمد عليها المستشرقون والمنصرون في الاستدلال على أفكارهم وفي إثارة الشبهات . وفي هذا المخصوص ، لا بد من تخليص الفكر الإسلامي من جسمين غربيين تغلغلما فيه ، وتبسببا في كثير من التشويه له . الأول عرفه العلما المسلمون باسم «الإسرائيлик» أي الأفكار الإسرائيلية وغيرها مما وجد طريقه إلى بعض كتب التفسير والحديث وبعض مصادر التاريخ الإسلامي . ويجدر الإشارة إلى أن مصطلح «الإسرائيлик» لا يشير فقط إلى الأفكار اليهودية ، ولكنه يستخدم للدلالة على كل الأفكار الأجنبية المفترضة التي تم إدخالها في الفكر الإسلامي ^(٩٦) .

أما الجسم الشانى الفسيب الذى تسرب إلى الفكر الإسلامى فهو أحدث من «الإسرائيلىيات». وقد اختار بعض العلماء المسلمين تسميتها بالغزو الفكرى الحديث . ويُفضل فى هذا المقام إطلاق اسم جديد له وهو «الاستشراقيات». وهو مصطلح قد ييو غريبًا لأول وهلة ولكن معنى (تعبير) حقيقى عن مصدر الغزو الفكرى الحديث ألا وهو الاستشراق . وإذا كان العلماء المسلمون قد استقرروا على تسمية الغزو الفكرى القديم بـ «الإسرائيلىيات» فمن الصحة تسمية هذا الغزو الفكرى الحديث بـ «الاستشراقيات» . وهو مصطلح مناسب لأن الاستشراق هو مصدر كل الأفكار الأجنبية المترفة والشبهات فى الفكر الإسلامى الحديث ، كما أن له علاقة دلالية بمصطلح «الإسرائيلىيات» القديم ليس هنا مكان تفصيلها . فالاستشراقيات امتداد طبيعى للإسرائيلىيات من حيث الدلالة . وفيها من الشمولية ما يجعلها كمصطلح محتوية على «الإسرائيلىيات» . ومن الطبيعي أن نقول هنا أن واجب تخلص الفكر الإسلامى من «الإسرائيلىيات» القديمة والاستشراقيات الحديثة يقع على عاتق العلماء المسلمين المجادين الفيورين على الدين. وهو عمل ضخم يجب أن يتولاه فريق من العلماء لعدد من السنين ويدعم معنوى ومادى كبير من الدول والمؤسسات الإسلامية المعنية بالتراث الإسلامي .

خامسًا : ضرورة العمل على توفير الكتاب الإسلامى البديل للكتاب الاستشراقي ، وبخاصة فى اللغات الأجنبية التى يعتمد أصحابها اعتماداً كلياً على الكتابات الاستشراقية فى الحصول على المعرفة الإسلامية . إن توفير المصدر الإسلامى فى اللغات الأوروبية يؤدى إلى

إحداث نوع من التوازن في مصادر المعرفة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية ، ويعطى الفرصة للمenschf الغربي وطالب العلم المتخصص في الإسلام والمسلمين لكي يقارن ويزاولن بين المعرفة الاستشرافية عن الإسلام والمعرفة التي تقدمها المصادر الإسلامية حتى يصل إلى الحقيقة التي ينشدها ، فتقلل بالتدريج من اعتماده على المصادر الاستشرافية . ويدخل هذا ضمن المجهود العلمي المطلوب من العلما ، المسلمين العارفين باللغات الأوروبية . فمن الواجب عليهم اقتحام مجال التأليف عن الإسلام في اللغات الأجنبية عامة . وهناك أيضاً مجال ترجمة المصادر الإسلامية الصحيحة إلى هذه اللغات . وهو عمل عظيم له مردوده الكبير في مقاومة الفكر الاستشرافي ، وتقليل الاعتماد على المصادر الاستشرافية ، وله أيضاً فوائد الدعوية فوجود الكتاب الإسلامي الصحيح في اللغات الأجنبية المختلفة يُسهل عملية انتشار الإسلام إذ أن إحدى عقبات انتشار الإسلام ، وبخاصة في الغرب ، سببها عدم وجود الكتاب الإسلامي .

سادساً : يرتبط باللحظة السابقة توفير الكتاب الإسلامي الصحيح للقارئ والمenschf المسلم وكذلك للمتخصص المسلم حتى يقل اعتماده على المصادر الاستشرافية في لغاتها الأجنبية أو المترجم منها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . ومن أول الأعمال المطلوبة بشكل أساسي إعداد دائرة معارف إسلامية يكتبها مسلمون لتحول محل دائرة المعارف الاستشرافية المترجمة إلى اللغة العربية والصادقة في الاستخدام لدى المتخصصين والتي هي مصدر انتشار كل شبكات المستشرقين في الأوساط الفكرية الإسلامية .

سابعاً : الإسراع في تحقيق تنمية المجتمعات الإسلامية ، ووضع حلول إسلامية ناجعة لمشاكلها بدلاً من التوجه إلى الغرب لحل المشاكل والأزمات الإسلامية على اختلاف أشكالها فينفتح بذلك باب للغزو الفكري . والعمل على تحقيق استقلال المجتمعات الإسلامية من التبعية للغرب سياسياً واقتصادياً وفكرياً ، وتحقيق التعاون المباد بين المجتمعات المسلمة لوضع حلول داخلية لمشاكل العالم الإسلامي .

ثامناً : تقوية الدعوة الإسلامية كمؤسسة فكرية قادرة على مواجهة آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية إذا ما توفرت لها الإمكانيات المتاحة للاستشراف والتنصير . وضرورة تطوير العمل الدعوي في الغرب بما يناسب الأوضاع الفريضة دينياً وفكرياً ، وتربيبة دعاة قادرين على مواجهة المستشرقين والمنصرين ؛ وتأسيس وحدات لشئون الاستشراف والتنصير في المؤسسات الدعوية الكبرى لتابعة الأنشطة الاستشرافية والتنصرية ، والتخطيط لمواجهتها على أساس من المعرفة العلمية بها .

تم بحمد الله

الحواشى والمراجع

- ١ - حسن المعايرجي « المحرقون للكلم : الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوروبية » ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٤٨ ، يونيو ١٩٨٧ م ، ص ٥٤ .
- ٢ - أبو الأعلى المردودي ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، تصریب خلیل أحمد الحامدی ، دار القلم ، الكويت ١٣٩٨ هـ ، ص ١١ .
- ٣ - سامي سالم الحاج ، الظاهر الاستشرافية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، الجزء الأول ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة ١٩٩١ ، ص ٢١١ - ٢١٣ .
- ٤ - جوزيف سومرجي ، « أجناس جولدتسيهير (١٨٥٠ - ١٩٢١) » ، مجلة العالم الإسلامي التبشيرية ، العدد الثالث يونيو ١٩٥١ ، نقلها إلى العربية الصديق بشير نصر ، في كتاب قضايا الفكر الإسلامي كما يراها بعض المستشرقين . منشورات كلبة الدعوة ، طرابلس ١٩٨٨ ، ص ٣٣٦ .
- ٥ - انظر في موضوع الخلقة الثقافية للمستشرقين :
- محسود حمدى زقزوق ، الاستشراف والخلفية الفكرية للصراع المضارى ، كتاب الأمة رقم ٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ .
- مصطفى عمر حلبي ، الخلقة الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول ﷺ ، مجلة المنهل ٤٧١ جدة ١٤٠٩ هـ ص ٣٠ - ٤٥ .
- ٦ - انظر في هذا : ادوارد سعيد ، الاستشراف: المعرفة السلطة والإشارة ، ترجمة : كمال أبو ديب ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٧ - زقزوق ، الاستشراف والخلفية الفكرية ، ص ١٦ .

- ٨ - المرجع السابق ، ص ١١٦ .
- ٩ - سورة القصص الآية ٧٧ .
- ١٠ - سورة الشورى الآية ١١ .
- ١١ - انظر مثلاً أعمال كل من ماسينيبيون ، الفصوف الإسلامي والتوصيف المسيحي في العصر الوسيط (١٩٥٦) وسجيل كروث هرنانديز ، ابن عيسى المرسي والروحانية المسيحية الإسلامية (١٩٦٥) ، وأسين بلاشيوس ، الإسلام في ثوب نصراني ، (مدريد ١٩٣١) . نقلًا عن تجذيب المتيقني ، المستشرقون .
- ١٢ - ذقروق ، الخلفية الثقافية من ١١٦ .
- ١٣ - يقول الزيادي : « الهدف الثاني الذي كان يتوجه الصهاينة من تبني الدراسات (الاستشرافية) هو استخدامها كبداية لدراسات عنصرية استعمارية تهدف إلى إظهار كل ما يرفع من شأن اليهود ، ويقلل من قيمة العرب ، وإحياء كل الدعوات التي تؤكد أرض الميعاد والعودة إلى فلسطين . وكانت الدراسات الاستشرافية على أيدي جولدتساير ومرجوليوث ورينان و يجب الأرضية الجديدة التي بدأ اليهود من خلالها الاستفادة من حركة الاستشراق والتأثير فيها » . محمد الزيادي ، « آخر اليهودية والصهيونية على الاستشراق » رسالة المهداد ، فبراير ١٩٨٩ ص ١١٨ وانظر رضوان السيد ، « اليهودية والصهيونية في الاستشراق » ، مجلة الفكر الإسلامي ، العدد ١ السنة ١٩ ، ١٩٨٩ حيث يؤكد رضوان على التوجه المستشرقين اليهود إلى إثبات الاستمرار الشعبي والحضاري اليهودي في عالم الإسلام بالشرق وفلسطين عبر التاريخ الإسلامي كله .
- ١٤ - يلخص محمد السماك قاعدة ما يسمى بالصهيونية المسيحية في ثلاثة أمور : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن ميشائلا إلهيا يربط اليهود

بالأرض المقدسة في فلسطين ، وأن الإيمان المسيحي يعود إلى السبب المسبّب
مرتبط بقيام دولة صهيون أي بإعادة تجميع اليهود في فلسطين حتى يظهر
المسيح فيهم . انظر محمد السماك ، الأصولية الإنجليلية أو الصهيونية
المسيحية والمرفق الأمريكي ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة
١٩٩١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . انظر أيضاً ريجينا الشريف ، الصهيونية غير
اليهودية : جذورها في التاريخ الغربي ، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز ،
العدد ٩٦ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٥م . وانظر : يوسف الحسن ،
البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني ، دراسة
في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية ، مركز دراسات الوحدة العربية ،
بيروت ١٩٩٠ .

١٥ - د . إبراهيم عكاشة على ، ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن
العربي ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ،
١٤٠٧هـ ، ص ٢٦ - ٣٢ .

١٦ - أحمد سعد الدين البساطي ، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية
، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٣٨ - ١٤١ .

١٧ - انظر نذير حمدان ، مستشرقون : سياسيون - جامعيون - مجمعيون ،
مكتبة الصديق للنشر والتوزيع ، الطائف ، ١٤٠٨هـ ، ص ٧ - ٨ .

١٨ - محمد خليفة حسن ، « الوحدة الثنائية للمنطقة العربية في التاريخ
القديم » ، مجلة الوحدة ، العدد ٤٢ ، ١٩٨٨ ، ص ٩٩ . وانظر أيضاً
محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
الطبعة الخامسة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

١٩ - علي جريشة ، حاضر العالم الإسلامي ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ،

جدة ١٤٠٨ هـ ، ص ٧٢ .

٢٠ - المرجع السابق ، ص ٧٢ وانظر محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٧٢ .

٢١ - المرجع السابق ص ٧١ ويدرك عبد المتعال الجباري أن ضياع الخلافة قد تسبب في الكثير من التأub والآثار السلبية في الحياة الإسلامية منها فقدان الهوية الإسلامية ، وانتشار الاستبداد ، وتغيير النظام الاجتماعي ، ومعه الشخصية الاجتماعية ، وفقدان الزعامة الدولة . انظر : عبد المتعال محمد الجباري ، نظام الحكم في الإسلام بأقلام فلاسفة النصارى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٤ م ، ص ٥٣ - ٥٧ .

٢٢ - يوضح محمد كاظم حبيب الخلفية الاستشرافية في فهم النظام السياسي في الإسلام بقوله : « فالمستشارون يحددون مفهوم الدين والدولة من طبيعة الصلة الموجودة بين المسيحية والحكم ، والتي تأثرت بعوامل متعددة ... وتبلورت فيما يسمونه بالكنيسة والدولة ، أو بتمايز السلطتين . وعلى هذا الأساس - أي على أساس الفصل والتمييز بين الكنيسة والدولة - حدد الفريسيون معنى الدين الذي يوجه الناحية الروحية لدى الأئمّة ، ومعنى الدولة التي تنظم شؤون حبائتهم وعلاقاتهم فيما بينهم ، ولذلك ثاب المستشرقين يحاولون أن يخضعوا الإسلام لتلك المفاهيم » محمد كاظم حبيب مؤامرة فصل الدين عن الدولة ص ٦٢ .

٢٣ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشرف ، بيروت ١٩٨٣ م ص ٢٥٣ - ٢٥١ . وانظر أيضاً : أمينة الصاوي ، عبد العزيز شرف ، جارودي والمحضارة الإسلامية ، دار القible للثقافة الإسلامية ، جدة ١٩٨٥ ، ص ٢٢٨ .

- ٤٤ - المرجع السابق ص ١١٨ .
- ٤٥ - الماوردي ، أبو الحسن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ م ص ٥ .
- ٤٦ - محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- ٤٧ - يقول أدوارد سعيد إن الاستشراق من الناحية النفسية « شكل من أشكال العصاب التوهmi (باراتوريا) ومعرفة من غط آخر مختلف عن المعرفة التاريخية العادلة » أدوارد سعيد ، الاستشراق ص ١٠٠ .
- ٤٨ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .
- ٤٩ - أمينة الصارى وعبد العزيز شرف ، جارودى والحضارة الإسلامية ص ٢٧٨ .
- ٥٠ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٧٨ وانظر أنور الجندي ، مفاهيم العلوم الاجتماعية ، دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧ ص ٩٨ .
- ٥١ - الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢١٩ .
- ٥٢ - المرجع السابق ص ١٨٠ .
- ٥٣ - يوسف القرضاوى ، الم酣صون العامة للإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
- ٥٤ - محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩٠ - ١٩١ .
- ٥٥ - المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
- ٥٦ - المرجع السابق ، ص ١٩٣ .
- ٥٧ - سورة النور الآية ٣٣ .
- ٥٨ - يوسف القرضاوى ، الم酣صون العامة للإسلام ، ص ١٧٣ .

- ٣٩- هامشون جب وأخرون ، وجهة الإسلام : نظرة في المركبات الحديثة في العالم الإسلامي ، ترجمة محمد عبد الهاادي أبو ريده ، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ٢٠-١٩ . وانظر أيضًا ، آدم متر . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، الجزء الثاني ، ترجمة محمد عبد الهاادي أبو ريده ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ م، ص ٣٧١ .
- ٤٠- جب ، المرجع السابق ص ٢ .
- ٤١- المرجع السابق ص ٢ .
- ٤٢- المرجع السابق ص ٢١ .
- ٤٣- المرجع السابق ص ٢٣ .
- ٤٤- د. محسود أبو السعود ، أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ، القسم الرابع ضمن البحوث المقدمة مؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض ١٣٩٦هـ. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ، ص ٣٨٣-٣٨٤ .
- ٤٥- المرجع السابق ص ٣٨٤-٣٨٥ .
- ٤٦- د. عبد الهاادي على النجاشي ، الإسلام والاقتصاد ، دراسة في المنظور الإسلامي لأبرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٦٣ ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣ .
- ٤٧- المرجع السابق ص ١٤ .
- ٤٨- المرجع السابق ص ١٦ .
- ٤٩- د. سيد شوريجي عبد المولى ، الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون . دراسة تحليلية ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٩هـ، ص ١١-٩ .

٥- د. محمد أنس الزرقا، «الزكاة عند شاخت والقراض عند يودفيتش»، دراسة وتقديم «في: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية»، الجزء الثاني، الكويت، ١٤٠٥ هـ، ص ٢٦٧.

٦- أمينة الصاوي وعبد العزيز شرف، جارودي والحضارة الإسلامية، ص ٢٢٤.

Albert Hourani, Europe and the Middle East, The Macmillan co., London, 1980, p. 12-13.

٧- انظر في ذلك:

Muhammad Benaboud, "Orientalism and the Arab Elite", in, Islamic Quarterly, p. 3

Bernard Lewis "Islam and West" in National and International Politics in the Middle East ed., by E. Ingram, Frank Cass, London, 1986, p. 27.

٨- د. محمد خليفة حسن، مسيرة الوعي العربي، مجلة فكر العدد ١٥، ١٩٨٩م، ص ٥٨.

٩- د. محمد خليفة حسن، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القديم، ص ٩٩.

١٠- د. محمد خليفة حسن، علاقة الإسلام باليهودية: رؤية إسلامية في مصادر التوراه الحالية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٨، وانظر أيضًا د. قنديل محمد قنديل، النقد الأعلى للكتاب المقدس في فكر الغرب وبنابعه الإسلامية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٨٩.

١١- (إنا نعن نزلنا الذكر وإننا له حافظون) . سورة الحجر الآية ٩.

- ٥٩- سورة البقرة الآية ٧٩ .
- ٦٠- سورة البقرة الآية ٥٩ .
- ٦١- سورة المائدة الآية ١٣ .
- ٦٢- سورة النساء الآية ٨٢ .
- ٦٣- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٤٧٢ .
- ٦٤- د. عبد الحميد متولى ، الإسلام وموقف علماء المستشرقين ، عكاظ للنشر والتوزيع ، جلة ١٤٠٣ هـ ، ص ١٢-١ .
- ٦٥- أحمد على الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، دار الفكر (بدون تاريخ) ص ٨١ .
- ٦٦- د. عايد بن محمد السفيانى ، المستشرقون ومن تابعهم و موقفهم من ثبات الشريعة وشموليها دراسة وتطبيقا ، مكتبة المثارة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٨ هـ ص ١٤١ ، ١٤٣ .
- ٦٧- د. عبد الحميد متولى ، الإسلام وموقف علماء المستشرقين ، ص ٤٢-٤٣ .
- ٦٨- المرجع السابق ، ص ٤٩ .
- ٦٩- المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٥٩ وانظر أحمد على الملا ، ص ٨٣ . وكذلك كارلو ألفونسو ناليتو ، «نظارات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الروماني»، في كتاب: هل للقانون الروماني تأثير على الفقه الإسلامي، دار البحوث العلمية، بيروت، ١٩٧٣، ١٩ - ٢٠ .
- ٧٠- متولى ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٢ وكذلك الملا ص ٨٥ .
- ٧١- الملا ص ٨٤-٨٥ ، وانظر متولى ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ .
- ٧٢- د. محمد سليم العوا ، «النظام القانوني الإسلامي في الدراسات الاستشرافية المعاصرة، دراسة لمجتمع المستشرق نويل كولسون» في مناهج

- المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول ، ص ٢٥٧ .
- ٧٣- المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .
- ٧٤- د. اسماعيل عصايري ، المستشرقون ونظرائهم في نشأة الدراسات اللغوية ، دار حزین ، عمان ، ١٩٩٢ ، ص ٥٨-٥٧ .
- ٧٥- جبار تربوي ، «نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه» ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنية ، العدد الأول ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .
- ٧٦- المراجع السابق .
- ٧٧- المراجع السابق .
- ٧٨- د. يحيى الجبوري ، «المستشرقون والشعر الجاهلي» ، سلسلة كتب الشفافية المقارنة ، الاستشراق ، بغداد ١٩٨٧ ، ص ٧٨-٧٩ ، ومقال نولدكه منتشر في كتاب عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» دار العلم للملائين بيروت ١٩٧٩ م ص ١٧-٤٠ .
- ٧٩- يحيى الجبوري ص ٧٩ .
- ٨٠- المراجع السابق ص ٨٠-٨٣ ومقال ألوارد مترجم في عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين ...» ص ٤١-٨٦ .
- ٨١- محمد مصطفى هذارة ، موقف مرجلبيوث من الشعر العربي في مناجع المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول ، ص ٣٩٦-٤٣٨ ، وانظر كذلك يحيى الجبوري ، المستشرقون والشعر الجاهلي ص ٨٨-٩٩ وانظر فيه أيضًا تقد المستشرق بروينتش لأراء مرجلبيوث . ص ٩٩-١٠٢ .
- ٨٢- د. عبد الصبور شاهين ، في علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤ م ، ص ٢٦٨-٢٩٩ .
- ٨٣- د. صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملائين ، الطبعة

- ال السادسة ، ١٩٧٦ ، ص ٣٥٥-٣٥٩ ، وانظر د. اسماعيل الفاروقى نظرية الفن الاسلامى ، مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٥ ، ١٤٠١ هـ ص ١٥٦-١٦٢ .
- ٨٤- روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملاتين ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ - ٢٨١ وانظر ابراهيم مذكور ، «لغة العلم » مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٠ ، ١٩٦٦ القاهرة .
- ٨٥- لمجتب العقيقى ، المستشرقون ، الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٨ ، ٩٥ وانظر روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ص ٩ ، ٢٤٥ .
- ٨٦- روم لاندو ، ص ٢٤٩-٢٥٦ وانظر أيضًا ، محمد قطب ، كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ١٤١٢ هـ ، ١٣٨ .
- ٨٧- محمد قطب ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ .
- ٨٨- سورة المجرات ، الآية ١٣ .
- ٨٩- د. زينات بيطار ، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥٧ الكويت ١٩٩٢ ص ٩ ، ١٣ .
- ٩٠- د. عصاد الدين خليل ، قالوا عن الإسلام ، الشدو للشباب الإسلامي ، الرياض ١٤١٢ هـ ، ص ٦٣ ، ٧٧ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٠ ، ١٥٠ .
- ٩١- المرجع السابق ، ص ١٥ ، ٢٣٠ ، ١٥ . انظر أيضًا لمجتب العقيقى ، المستشرقون ، الجزء الثاني ، ص ٥٢ ، ٩٧ و ١١٦ .
- ٩٢- العقيقى ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٩٢ .
- ٩٣- عصادة البحث الملحق ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية . المشروع - برنامج العمل - الإنجازات الرياض ، ١٤١٣هـ ، وانظر أيضًا د. اسماعيل الفاروقى، الوجيز

- في إسلامية المعرفة ، المعهد العالمي للنون والإسلام ، هيرنندن ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٨٧ م.
- ٩٤- د. محمد حسين النهري، الروح والقرآن الكريم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٢٦ هـ ١٩٨٦ م . ص ١٤٣-١٦٨ .
- ٩٥- اقترح العديد من العلماء المسلمين وسائل لمواجهة الاستشراق ومن أهمهم : د. محمود حسني زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص ١٢٣-١٥٢ ، أهرام المسن التدوين ، الإسلام والمستشرقون ، ندوة العلماء بالهند . انظر أيضاً : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين . مذكرة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥ هـ . وانظر د. محمد الدسوقي ، الفكر الاستشرافي في ميزان النقد العلمي ، دراسات استشرافية وحضارية ، مركز الدراسات الاستشرافية والحضارية بكلية الادعية بالمدينة المنورة ، العدد الأول، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ص ٨٧ - ١٣٥ .

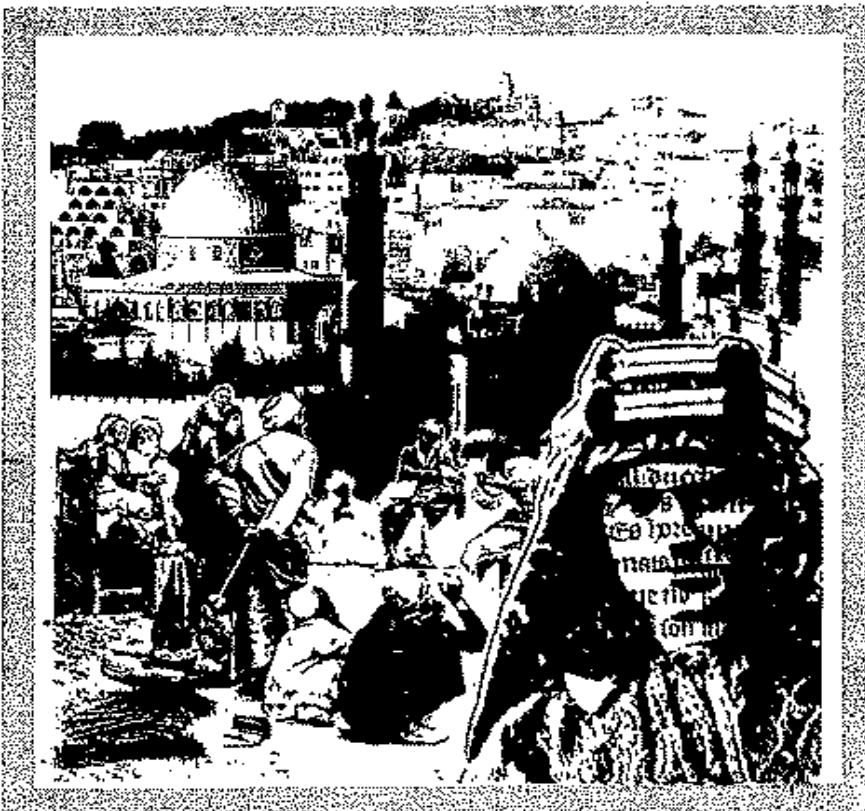
رقم الإيداع ٩٧/٣٢٨٧

الترقيم الدولي ٥ - ٦٢ - ٥٤ ٨٧ - I.S.B.N 977

دار روتابرينت للطباعة والتوزيع: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٦٩٦ - ٣٥٥

٥٣ شارع نوبار - باب الترقى

الفنون
الفكر والاستشراق
في المجتمعات الإسلامية



للدراسمات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

To: www.al-mostafa.com